رواء

مجلة فكرية دورية

تصدر عن هيئة الشام الإسلامية

- منهجية التفكير التصميمي .. تجارب رائدة في خطبة الجمعة
- صقل الشخصية وتجديد الحياة .. معجزة التربية الإسلامية
- قاعدة المنار في التعاون والإعذار

# أهل السنة والجماعة
## المصطلح والانتماء

- لن نُهزم ما احتفظنا بآخر قلاعنا
- علاقة المصائب بالذنوب وعقوباتها الإلهية



العدد الثاني
شعبان 1441 هـ- نيسان/أبريل 2020 م

### هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

## ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة




ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالةً للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة.

ترسل المقالات والمواد إلى العنوان التالي: Rawaa@islamicsham.org

### سياسات النشر في المجلة

١- تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.

٢- تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.

٣- لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.

٤- يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.

٥- أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.

٦- تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.

٧- تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

## فهرس الموضوعات

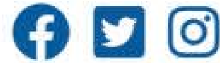





مـجلـة رَواء
دورية فكرية تصدر مؤقتًا كل شهرين
عن هيئة الشام الإسلامية






rawaamagazine

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير،
وترسل على العنوان التالي:
Rawaa@islamicsham.org

# الشام المباركة

الشام بلاد مُباركة مُصطفاة، نشأت فيها حضارات قديمة، ووفدت إليها هجرات عديدة، بُعث فيها جمعٌ من الأنبياء، وعرف مكانتها الملوك والرؤساء، حتى تنافست الدول والأمم لبسط نفوذهم عليها قديمًا وحديثًا.

ثبتت فضيلة الشام وبركتها، وفضل المقام بها والهجرة إليها في جملة من النصوص الشرعية بلغت حدَّ التواتر والقطع دلالة، وتدور هذه النصوص حول عدد من الأمور:

- فضل البلاد وبركتُها، كقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم بارك لنا في شامِنا وفي يَمَنِنا)[١]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (طُوبَى لِلشَّام)، فلما سأله الصحابة عن ذلك قال: (لأنَّ ملائكةَ الرحمنِ باسطةٌ أجنحتَها عليها)[٢].

- خيرية أهلها، وفضل السكن فيها والهجرة إليها، قال صلى الله عليه وسلم: (سَيكونُ جُند بالشَّام، وجُنْد باليَمن)، فقال رجل: فَخِر لي يا رسول الله إذا كان ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عليكَ بالشَّام، عليك بالشَّام -ثلاثًا- عليك بالشَّام، فمن أبى فليلحق بيمنه، وليَسق من غُدُره، فإنَّ الله قد تكفَّل لي بالشَّام وأهله)[٣].

- فيها عمود الإسلام: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بينا

(١) أخرجه البخاري (١٠٣٧).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٥٤).
(٣) أخرجه أحمد (٢٠٣٥٦).

أنا نائم إذ رأيتُ عَمودَ الكتاب احتُمِلَ من تحت رأسي، فظننت أنه مَذهُوب به، فَأتبعتُه بصري، فَعُمِدَ به إلى الشَّام، ألا وإن الإيمانَ حين تقعُ الفتن بالشام)[١].

- تكون فيها الملاحم، وبها جنود الإسلام: (إنَّ فُسطاطَ المسلمينَ يومَ الملحمةِ بالغوطةِ إلى جانب مدينةٍ يقال لها: دمشقُ، مِن خيرِ مدائن الشَّام)[٢].

## وفي معرض الحديث عن هذه الخيرية تبرزلنا تساؤلات مهمة:

من أبرزها: كيف تكون الخيرية والبركة في بلاد الشام ونحن نرى جزءًا منها (فلسطين) تحت احتلال اليهود، وجزءًا آخر تحت احتلال الباطنية من عقود طويلة (سورية)؟ وكيف تكون الخيرية في أهل الشام ونحن نرى أعدادًا منهم بعيدين عن تعاليم الإسلام؟ وكيف تأمرنا هذه النصوص بالشام ونحن نرى قريبًا من نصف أهلها قد تهجَّروا منها، وفريقٌ آخر يتمنى الخروج منها من شدَّة ما يجدُ من أهوال الحرب والاحتلال؟

وفي المقابل ظنَّ فريق من الناس أنَّ مجرَّد اللحاق ببلاد الشام والإقامة فيها يجعلهم أهلاً لهذه الخيرية، ومن الطائفة المؤمنة المجاهدة، وأنَّ تخلُّفهم عن ذلك تخلُّفٌ عن اللَّحاق بالناجين، ممَّا أوقعهم في الالتحاق بمن فسد مُعتقده وعمله.

## ولتجلية هذا الأمر نقول:

أولاً: لا بد من التأكد من صحة النصوص الشرعية ابتداءً: فبعض ما يروى من أحاديث وآثار غير ثابت، كالحديث الذي يروى: (الشَّام صفوةُ الله من بلاده، يَجتَبي صفوته من عباده، فمن خرج من الشَّام إلى غيرها، فبِسَخطَة، ومن دخلها فبرحمة)[٣].

فهذا الحديث غير صحيح، ولا حاجة للبحث في تفسيره أو تأويله.

ثانيًا: منهج المسلم الحق هو التسليم للنصوص الشرعية الصحيحة، فلا يُعارضها ببادي رأيه، ولا يردُّها لقلة بضاعته وفقهه، بل يُسلِّم لها ثم يبحث عن معناها وحكمتها، فما هُدي إليه منها فبفضل الله عليه، وما خفي عنه منها اتَّهم نفسه ووكل مُراده إلى الله، قال ابن القيم رحمه الله في العاصم من الاعتراض على الشرع: «فإذا سلَّم القلبُ له [أي للشرع] رأى صحةَ ما جاء به، وأنه الحق بصريح العقل والفطرة. فاجتمع له السَّمع والعقل والفطرة. وهذا أكملُ الإيمان. ليس كَمَنِ الحربُ قائمٌ بين سمعه وعقله وفطرته»[٤].

ثالثًا: بجمع النصوص الصحيحة الواردة في المسألة، والرجوع إلى أقوال العلماء وشراح الحديث، يتبين ما يلي:

أ- الخيرية الواردة في النصوص الشرعية تعني الخيرية في غالب الزمان وعند عموم الناس، ولا تنفي أن يقع فيها بعض الشرّ، أو أن يكون في بعض أهلها شرٌّ، ومما يدل على ذلك:

- ما فهمه الصحابة رضي الله عنهم من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من عدم دخول بلاد الشام: (إذا سَمِعتُم بالطَّاعونِ بأرضٍ فلا تدخلوها، وإذا وقعَ بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا منها)[٥]، فلم يدخلوها وقت انتشار الطاعون فيها، فيكون التوجيه بالسكن فيها هو الأصل العام، إلا أن يطرأ ما يمنع من ذلك.
- بل إن خير البلاد وهي مكة والمدينة اللتان حفظهما الله يقع فيهما مثل ذلك، ولا ينافي حفظ الله لها على الجملة، قال صلى الله عليه وسلم: (عُمرانُ بيتِ المقدسِ خَرابُ يثرب)[٦]، وقال:

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٧٣٣).

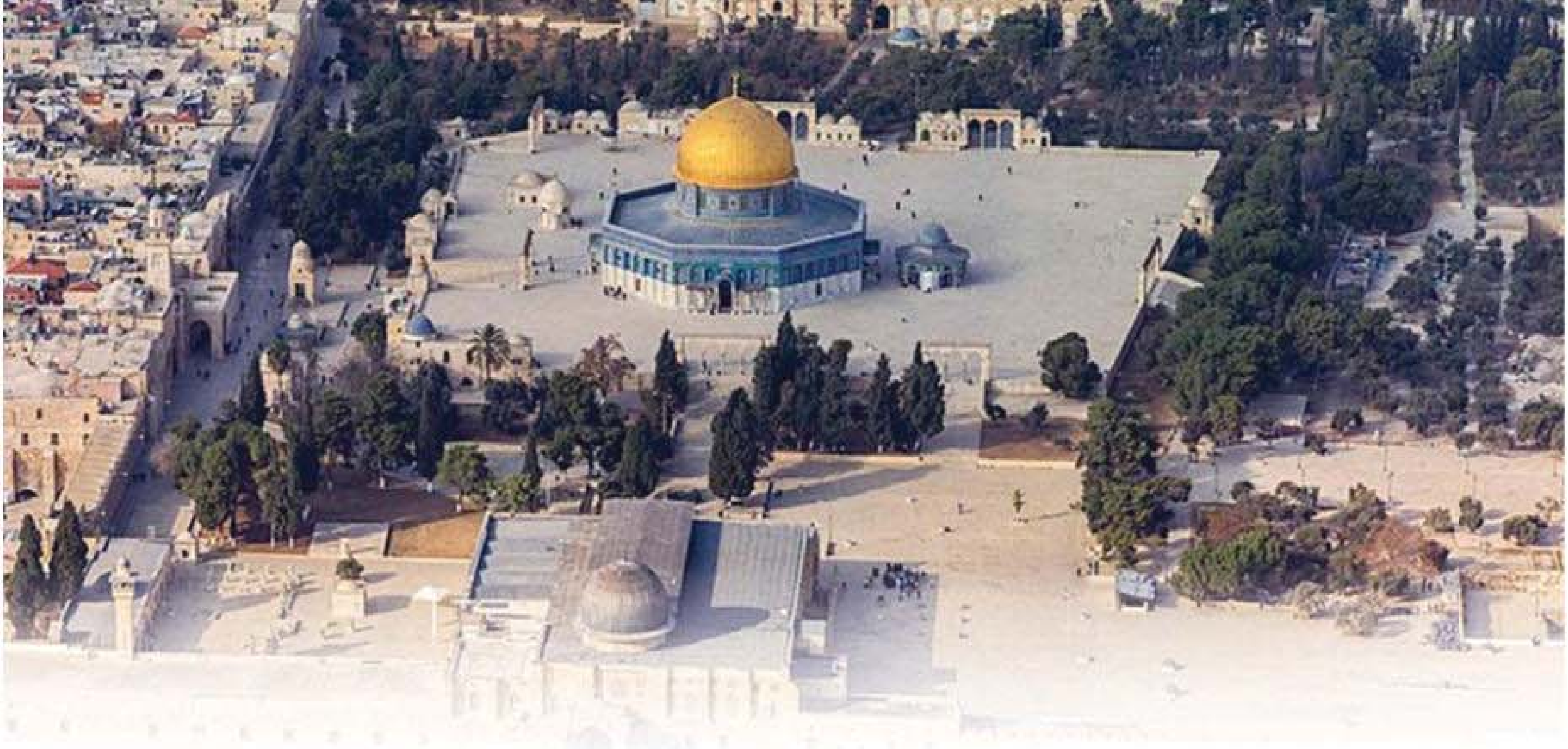
(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٩٨)، واللفظ له، وأحمد (٢١٢٧٥).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧٧١٨)، والحاكم في المستدرك (٨٥٥٥). قال الهيثمي: «رواه الطبراني وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف»، مجمع الزوائد (١٠/٥٩)، وقال ابن حجر: «وسنده ضعيف»، فتح الباري (١٢/٤٠٣)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٣٤٢٥).

(٤) مدارج السالكين (٢/٦٨).

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٢٨) والفظ له، ومسلم (٦٥٥٧).

(٦) أخرجه أبو داود (٤٢٩٤)، وأحمد (٢٢٠٢٣).



(يُخرِّب الكعبةَ ذُو السُّويقتينِ من الحَبشة)[1]، فغيرها من البلاد أولى.

- ما دلت عليه النصوص من وقوع الفساد والشر في بعض أهل الشام، لقوله صلى الله عليه وسلم: (إذا فَسَدَ أهلُ الشَّام، فلا خيرَ فيكم) [2]، وقد يغلب هذا الشر في بعض الأوقات.

ب- وجود الخيرية في بلاد الشام وفي أهلها وجندها لا يعني انتفاء الخيرية عن غيرها من البلاد، كما وردت النصوص الشرعية بوجود الخيرية في مكة والمدينة واليمن، وقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزالُ طائفةٌ من أُمتي) دلالة على أن هذه الطائفة هي فئة من الأمّة وليست كل الأمّة، مما يعني وجود فئات وطوائف أخرى على الحق في بلدانٍ أخرى، قال ابن حجر رحمه الله: «ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض منه دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولاً فأولاً، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله»[3]. فالطائفة المنصورة تكون بالشَّام وبغير الشَّام، فإذا كان آخر الزمان تكونُ محصورة في بلاد الشام، كما في الحديث: (حتى يُقاتلُ آخرهم المسيحَ الدَّجال)[4].

وعلى هذا كان فهم وعمل أئمة أهل السنة في جميع الأزمنة، فلم يكونوا كلهم في مكان واحد، ولا في بلاد الشام، بل تفرّقوا في جميع البلدان، يقيمون الدين ويجاهدون ويُعلمون.

ج- أن العاقبة ومآل بلاد الشام إلى خير، وهذا ما تدل عليه نصوص الملاحم، ونزول عيسى عليه السلام ونحو ذلك.

رابعًا: أن الخيريةَ لا تكون لمجرد الانتماء والانتساب أو الوجود في المكان المبارك، بل بما يكون عليه الإنسان من عمل، ففي الموطأ: «أنَّ أبا الدرداءَ كتب إلى سلمان الفارسي: أن هَلُمَّ إلى الأرض المقدَّسة، فكتب إليه: إنَّ الأرض لا تُقدِّس أحدًا، وإنما يُقدِّس الإنسانَ عمله»[5].

وقال صلى الله عليه وسلم لِأقرب الناس إليه وهو في الأرض المباركة: (اِشتروا أنفسَكم من الله، لا أُغني عنكم من الله شيئًا)[6].

(١) أخرجه البخاري (١٥٩١)، ومسلم (٢٩٠٩).
(٢) أخرجه الترمذي (٢١٩٢)، وأحمد (١٥٥٩٦).
ومعلوم في اللغة أن إذا تستعمل لما يُعلم وقوعه أو يظن وقوعه غالبا، بينما تستعمل إن لما يندر وقوعه أو يستوي طرفاه، قال الله "وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم".
(٣) فتح الباري (١٣/٢٩٥).
(٤) أخرجه أبو داود (٢٤٨٤)، وأحمد (١٩٨٥٢).
(٥) برواية أبي مصعب الزهري (٣٠٢٢).
(٦) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٣٥١).



فمن أراد الحصول علي خيرية بلاد الشام فليكن على خيرٍ في دينه وعمله، وعند ذلك تتحقَّق فيه الخيرية، لا بمجرد انتسابه لها أو مُقامه فيها، وإلا وقع في مثل ما وقع به بنو إسرائيل حين ظنوا أنَّ الخيرية فيهم دائمةٌ مستمرةٌ على كلِّ حال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، و ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، لفهمهم نصوص التفضيل كقوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧] على غير وجهها.

## العلاقة بين فضل الشام وما يحصل فيها:

من سُنن الله في البلاد والعباد أنه إذا أراد لفت الأنظار إلى أهمية بلد من البلاد أو زمان من الأزمنة أن يجري أحداثًا عظيمة في تلك البلاد وقبيل ذلك الزمان، تجعل الناس يتنبهون إلى أهمية المكان وقدسيته وفضله، وإلى شرف ذلك الزمان ومكانته، ومن ذلك ما وقع في مكة المكرمة قبيل البعثة لما أراد أبرهة الحبشي غزو الكعبة وهدمها، فأجرى الله عددًا من الآيات العظيمة التي رفعت من مكانة البيت في أعين الناس، وزادت من شرف ساكني مكة، وآذنت بزوغ فجر جديد، أقام العدل، وأزال الظلمة عن وجه الأرض، وأشرق نوره على كامل المعمورة إلى أن تقوم الساعة.

ولعل الله تعالى هيأ هذه الأحداث العظيمة التي يتعرَّض لها أهل الشام في هذه الزمان، ليلفت الأنظار إلى خيرية هذه البلاد وفضل أهلها، فابتلاهم بتسلُّط اليهود وأعوانهم من الباطنية عليهم، حتى أصابهم منهم ما أصابهم من إزهاق الأرواح، وهدم الأوطان، والتهجير والتشريد وفي الأرض، وغيرها من الابتلاءات، وليكون ذلك مقدمة لنصرهم وتمكينهم، «قيل للإمام الشافعي رحمه الله: أيّهما أفضل: الصَّبر أو المِحنة أو التَّمكين؟ فقال: التَّمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التَّمكين إلا بعد المحنة، فإذا امتُحن صبر، وإذا صَبَرَ مُكِّن»[1].

وفي تفسير قوله تعالى: (وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) [آل عمران/١٤١]، قال الإمام جمال الدين القاسمي: «أي لينقّيهم ويخلّصهم من الذنوب، ومن آفات النفوس. وأيضًا فإنه خلَّصهم ومحَّصهم من المنافقين ، فتميَّزوا منهم ... ثم ذكر حكمة أخرى وهي: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: يُهلكهم، فإنَّهم إذا ظفروا بَغَوا وبطروا، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم، إذ جرت سنّة الله تعالى إذا أراد أن يُهلك أعداءه ويمحقهم قيّض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه ومحاربتهم وقتالهم والتسليط عليهم ... وقد محق الله الذي (الذين) حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد وأصروا على الكفر جميعًا»[2].

---

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي (٤٣/١).
(٢) محاسن التأويل (٢٣٩/٤).

# لن نهزم ما احتفظنا بآخر قلاعنا

أ. محمد أمجد عبد الرزاق بيات[1]

«القلعة الداخلية» هي حصن الإنسان الأهم، وقد تكون الأخير، منها ينبع الإيمان، ويتوجه السلوك، وبها يحتمي في الشدائد والمحن، هي القلعة الأصعب حتى في مواجهة الجيوش، والثبات فيها رباط وجهاد.

كتب الإمام ابن القيم -رحمه الله- أنَّ الله سبحانه وتعالى: «إنما خلق السماوات والأرض، وخلق الموت والحياة، وزيَّن الأرض بما عليها، لابتلاء عباده وامتحانهم، ليعلَمَ مَن يُريده ويريد ما عندَه، ممَّن يريد الدنيا وزينتها ... فالناسُ إذا أُرسل إليهم الرُّسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنتُ أو لا يؤمن ... ولا بدَّ من امتحان هذا وهذا. فأمَّا مَن قال: آمنتُ، فلا بدَّ أن يمتحنه الربُّ ويبتليه ليتبيَّن: هل هو صادقٌ في قوله آمنتُ، أو كاذبٌ، فإن كان كاذباً رجَعَ على عقبيه، وفرَّ من الامتحان، كما يَفرُّ من عذاب الله وإن كان صادقاً ثبتَ على قوله، ولم يزده الابتلاءُ والامتحانُ إلا إيماناً على إيمانه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]»[2].

فالجهاد ماض إلى يوم القيامة، والمواجهة بين الحق والباطل مستمرَّة، ومن حكمة الله جلَّ جلاله أن تكون الحرب سجالاً بين المؤمنين والكفرة.

وقد جاءت الأحاديث عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم التي تحثُّ على مواجهة العدو بمراتب الجهاد الثلاثة (اليد، واللسان، والقلب)، والتي لا ينفكُّ أحدها عن الآخر؛ والقلبُ هو المُحرِّك والباعث، وكلَّما امتلأ إيمانًا وتصديقًا، انعكس على الجوارح قولاً وفعلاً، وقد سمَّى النبيُّ عمل القلب جهادًا، وسمَّاه تغييراً، فعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: (...فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ)[3]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ

---

(١) ماجستير في الفقه، باحث شرعي ومدرس.

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشَّيطان (٢/١٧٦-١٩٢).

(٣) أخرجه مسلم (٥٠) عن ابن مسعود.

لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ)[1]. وَعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا تُغْلَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ: الْجِهَادُ بِأَيْدِيكُمْ، ثُمَّ الْجِهَادُ بِأَلْسِنَتِكُمْ، ثُمَّ الْجِهَادُ بِقُلُوبِكُمْ، فَأَيُّ قَلْبٍ لَمْ يَعْرِفِ الْمَعْرُوفَ وَلاَ يُنْكِرُ الْمُنْكَرَ؛ نُكِّسَ فَجُعِلَ أَعْلاَهُ أَسْفَلَهُ)[2].

> **تؤكد الآثار على أنَّ الإنكار بالقلب فرضٌ، ومَن لم يُنكر بقلبه فقد هَلَك أو قارَب!**

وهذا يدلُّ على وجوب إنكار المنكَر بحسب الإمكان والقُدرة، وأنَّ الإنكار بالقلب لا بدَّ منه، فمن لم يُنكر قلبُه المنكر؛ دلَّ على نقصان إيمانه، وقد وردَ هذا المعنى عن عددٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم: فَعَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، قَالَ قِيلَ لِحُذَيْفَةَ رضي الله عنه: مَا مَيِّتُ الأَحْيَاءِ؟ قَالَ: «مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْمَعْرُوفَ بِقَلْبِهِ، وَيُنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِقَلْبِهِ»[3].

وَقَالَ عِتْرِيسٌ لِعَبْدِ اللهِ بنِ مَسعُود رضي الله عنه: «هَلَكَ مَنْ لَمْ يَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: بَلْ هَلَكَ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْمَعْرُوفَ بِقَلْبِهِ، وَيُنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِقَلْبِهِ»[4].

وَقَالَ ابنُ مَسعُود أَيضاً: «إِنَّهَا سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَبِحَسْبِ امْرِئٍ إِذَا رَأَى مُنْكَرًا لاَ يَسْتَطِيعُ لَهُ غَيْرَ أَنْ يَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِهِ أَنَّهُ لَهُ كَارِهٌ»[5].

فهذه الآثار تؤكد على أنَّ الإنكار بالقلب فرضٌ، ومَن لم يُنكر بقلبه فقد هَلَك أو قارَب! ومن ثَمَّ نفهم لم سمَّى الرسول صلى الله عليه وسلم الإنكار بالقلب جهاداً وتغييراً؛ ذلك أنَّ المنكِر بقلبه ما يزال متحصنًا بقلعته الأخيرة، لم يستسلم للواقع، فهو لا يزال مؤمناً بمبادئه، واثقاً بصوابه، مستمسكاً بحقِّه، فلا يستوي هو والذي سلَّم القلعة، ونفَضَ يديه من المعركة؛ أما الأول: فهو يراقب الأحداث، ويتلمَّس الفُرص، ليخرج من القلعة، ويعود إلى الميدان. وأما الآخَر: فقد هُزم من الدَّاخلِ، واستكان للواقع، وصار إلى حالةِ سلامٍ خادعٍ!

> **سمَّى الرسول صلى الله عليه وسلم الإنكار بالقلب جهاداً وتغييراً؛ ذلك أنَّ المنكِر بقلبه ما يزال متحصنًا بقلعته الأخيرة، لم يستسلم للواقع**

ولذلك حذَّر الرسول صلى الله عليه وسلم من الركون إلى هذا الوضع، لأنه يعلم أنَّ النفوس تَركَن وتسترخي! فقال: «وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»، وقال: «وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»، حتى لا يتزحزح المؤمن عن موقفه مهما كانت الظروف وتبدَّلت الأحوال، وهذا هو الجهاد؛ فالجهاد القلبي هو أصل الجهاد ودافعه، وهو منطلق تغيير المنكَر، حتى في حال الاستضعاف، وإذا تأمَّلتَ حديث النبيِّ صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: (يُهْلِكُ النَّاسَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ قُرَيْشٍ!) قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: (لَوْ أَنَّ النَّاسَ اعْتَزَلُوهُمْ)[6]. أي أن بعض قريش -وهم الأحداث منهم لا كلهم- يُهلكون الناسَ بسبب طلبهم الملك والقتال لأجله؛ فتفسد أحوال الناس، ويكثر الخبط بتوالي الفتن[7]، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أسلوب من أساليب الجهاد وإنكار المنكَر عند العجز عن التغيير باليد واللسان، وهو التغيير بالاعتزال والكفِّ عن المشاركة، بالمبادرة إلى الاعتزال كحركةٍ جماعيةٍ؛ «لَو أَنَّ النَّاسَ اعْتَزَلُوهُمْ». وهو أسلوبٌ سِلميٌّ، بعدم مُناصرة الظَّلَمَة وشرعنة وجودهم وأفعالهم؛ بتجنُّب مخالطتهم وغشيان مجالسهم، وهو «الجهادُ الصَّامتُ»، الذي أباحه الشَّارع للعاجز، وأضعفُ مراتب الإنكار التي لا يجوز تركها، فـ «لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ!»، فإنَّك قد تلجأ في لحظةٍ إلى الخروج من ساحة القتال اضطرارًا بغير اختيارك، لكن ثمَّة قلعة أخيرة تحتمي بها وتَلجأ إليها، وطالما أنك محتمٍ بقلعتك لم تُسلِّمها لعدوِّك،

(١) أخرجه مسلم (٤٩) عن أبي هريرة.
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٥٧٧).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٥٨١).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٥٨٢).
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/٦٦٧).
(٦) أخرجه البخاري (٣٦٠٤)، ومسلم (٢٩١٧).
(٧) ينظر: فتح الباري (١٣/١٠).

فأنت في جهادٍ ورباط، تتحيَّن الفرصة للانقضاض، أما إذا سلَّمتَ آخر قلاعك، فقد انتهى الأمر وحلَّت الهزيمة!

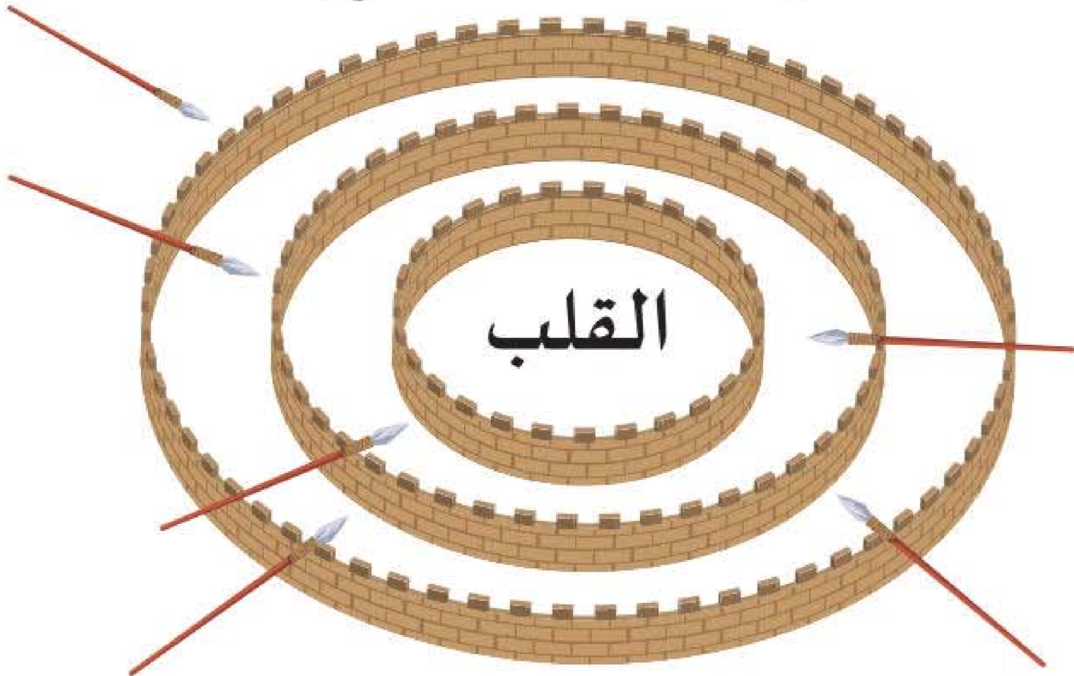
> **قد تلجأ في لحظةٍ إلى الخروج من ساحة القتال اضطرارًا بغير اختيارك، لكن ثمَّة قلعة أخيرة تحتمي بها وتَلجأ إليها، وطالما أنك محتمٍ بقلعتك لم تُسلِّمها لعدوِّك، فأنت في جهادٍ ورباط**

لقد تعلَّمت الجيوش أن الطريق الأسهل والأقلّ كلفة لإلحاق الهزيمة بالعدو يبدأ بالعمل على هزيمته من الداخل، بتعطيل إرادة القتال والاستمرار في المقاومة، فهذا النوع من الهزائم إذا تغلغل في النفوس وتسرَّب إليها، كان أشدّ فتكاً وأعظم أثراً، لِما يحدثه هذا النوع من الهزائم من آثار كبيرة، لعلَّ أخطرها: أن تجعل المهزوم يرى في مبادئه وقناعاته سبب هزيمته، ويرى في مبادئ عدوِّه سبب انتصاره، فيسعى للتبرؤ من أفكاره، وهنا تكون الطامَّة!

إن أخطر الأعداء هو الذي لا يكتفي بكتابة التاريخ، ولا برسم الجغرافيا، بل الذي يُكرّس الهزيمة في نفس عدوِّه، تلكَ لعمري هي الهزيمةُ الكبرى؛ لأنها أطولُ الهزائمِ، ومن أسوأ نتائجها: أن يسعى المهزوم للتصالحِ معَ هزيمتِهِ، والتنازل عن قناعاته ومبادئه، أو التنكُّر لها ومحاربتها! وقد قال سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : «إذا أحبَّ أحدكُم أن يعلمَ أصابتهُ الفتنةُ أم لا، فلينظُر؛ فإن كان رأى حلالاً كان يراهُ حرامًا، فقد أصابته الفتنة، وإن كان يرى حرامًا كان يراهُ حلالاً فقد أصابته». فهذا التبدُّل أمارةٌ على ارتياب هذا المتلوّن في دينه ومنهجه، يُخالفُ الثَّباتَ على الحقِّ، ولهذا كانَ السَّلَف «يرونَ التَّلوُّنَ في الدِّينِ مِن شكِّ القُلوبِ في الله!»، كما قَال إبراهيم النَّخعي رحمه الله.

فالمؤمن أبداً لا يتنازل عن مبادئه ولا يساوم على حقِّه.

تزولُ الجبَالُ الرَّاسيَات وقلبُه
على العَهْد لا يَلْوي ولا يتَغيَّرُ



# أصول الأذكار وأسرارها وفضائلها

أ. محمد بلال غنّام[1]

سبحان الله الحمد لله لا إله إلا الله الله أكبر

لا حول ولا قوة إلا بالله اللهم صل على محمد وسلم أستغفر الله

ذكر الله تعالى، به حياة القلوب، وأُنس النفوس، وسعادة الروح، المداومة عليه حياة، وتركه موت للروح وندامة، وفي هذا المقال بيان لفوائد ذكر الله تعالى، وأصولها التي تقوم عليها.

ذِكر الله سبحانه وتعالى من أعظم العبادات التي يتقرّبُ بها أولياء الله الصالحون لربِّ العالمين، كيف لا! وقد قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا أنبِّئُكم بخيرِ أعمَالِكم، وأزكاها عندَ مليكِكم، وأرفعِها في درجاتِكُم، وخيرٌ لَكم من إنفاقِ الذَّهبِ والورِقِ، وخيرٌ لَكم مِن أنْ تَلقَوا عدوَّكم فتضرِبوا أعناقَهم ويضرِبوا أعناقَكم؟ قالوا: بلى. قالَ: ذِكرُ اللَّهِ تعالى)[2].

## أهمية كثرة ذكر الله تعالى:

حثَّ الله سبحانه وتعالى على الإكثار من هذه العبادة؛ بل لم يأمر سبحانه وتعالى في كتابه بالإكثار من شيء سوى الإكثار من ذكره جلّ في عُلاه، يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

ولما مدح الله تعالى الذّاكرين وصفهم بكثرة الذكر، فقال سبحانه: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وذلك لأنهم يذكرون الله قبل العبادة، وأثناءها، وبعدها، وما ذلك إلا لعلمهم أن لُبَّ العبادات هو ذكر الله، وهي لم تشرع ابتداءً إلا لإقامة ذكر الله.

ففي الصلاة يتذكَّرون قوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة لذكرى﴾ [طه: ١٤]، أي لأجل أنْ تذكُرني. وبعدها يستحضرون قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٠٣]، وفي الحجّ يقتدون بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنَّما جُعِلَ الطوافُ بالكَعبةِ، وبينَ الصَّفا والمَروةِ، ورميُ الجِمارِ لإقامةِ ذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ)[3]، وبعده يمتثلون قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وما من عبادةٍ إلا ولها ذكر خاصٌّ، تدور في فَلَكه وتُذَكِّرُ به.

(١) أكاديمي ومحاضر جامعي، باحث في الدراسات الإسلامية.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧٧) واللفظ له، وأحمد (٢١٧٠٢)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وحسنه المنذري.
(٣) أخرجه أبو داود (١٨٨٨)، وأحمد (٢٤٣٥١).

والعجب في هؤلاء الصالحين أنَّهم لا يقتصرون على ذلك، بل يذكرون الله في كل أحوالهم، كما قال تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وما ذلك إلا لأنهم يجدون لذَّةً في ذكر الله جل في علاه، لا يجدونها في غير ذلك من المستلذَّات، قال مالك بن دينار: «ما تلذَّذَ المُتلذِّذونَ بمثلِ ذِكر الله عزّ وجل»[١].

## ذكر الله تعالى حياة للقلوب:

وهذه البهجة التي في القلب سببها أنَّ ذكر الله بمنزلة الماء عند شدَّة العَطَش، والطعامِ عند المسغبة، بل بمثابة الروح للقلب، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَثلُ الذي يذكرُ ربَّه والذي لا يذكر ربه مَثل الحيّ والميت)[٢].

فالغافل عن ذكر الله ميّت القلب، عياذًا بالله، قال ابن تيمية رحمه الله: «الذكر للقلب مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟»[٣].

والذكر يُذهب قسوة القلب، ويُذيبها كما يذوب الرصاص في النار، قال رجل للحسن البصري رحمه الله: يا أبا سعيد؛ أشكو إليك قَساوة قلبي. قال: «أَذِبْه بالذّكر»[٤].

فالخلاصة أن شفاء القلب ودواءه لا يتم إلا بذكر الله، ومن أروع ما وقفت عليه ما رواه مكحول مرسلًا: «إنّ ذكر الله شفاء، وإنّ ذكر الناس داء»[٥].

وقد صدق من قال في حقّ الله:

إذا مَرضنا تَداوينا بِذِكركم

فَنترك الذِّكرَ أحيانًا فَنَنتَكِسُ

## ذكر الله عنوان حب الله للعبد:

ومن أحبَّ شيئًا أكثر من ذكره، ولذلك فإنَّ برهان محبَّة العبد لله كثرةُ ذكره إياه، وليس هذا فحسب، بل عنوان حبِّ الله للعبد كثرةُ ذكر العبد له سبحانه وتعالى، فلولا أنَّه يحبُّ الذاكر لما وفَّقه لذكره، والله سبحانه وتعالى لا يُحبُّ إلا مؤمنًا، ولذلك كانت كثرة الذكر أمانًا من النفاق، فيالها من براءة ينالها الذاكر في الدنيا قبل الآخرة.

## ترك ذكر الله حسرة وندامة:

وشعار المنافقين هو قلة الذكر، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء: ١٤٢]. ومن فقه الصحابة قول كَعب رضي الله عنه: «مَن أكثَرَ ذِكر الله بَرِئَ من النّفاق»[٦].

وتأملوا كيف ختم الله سبحانه وتعالى سورة المنافقون بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[المنافقون: ٩].

فالخسارة كل الخسارة بالغفلة عن ذكر الله، وأهل الجنة لا يتحسَّرون على شيء إلا على ساعة مرَّت بهم ولم يذكروا فيها اسم الله سبحانه وتعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من قومٍ يقومونَ عن مَجلسٍ، لا يذكرونَ اللَّهَ فيهِ، إلَّا قاموا عن مِثلِ جيفةِ حمارٍ وَكانَ لَهُم حَسرةً)»[٧].

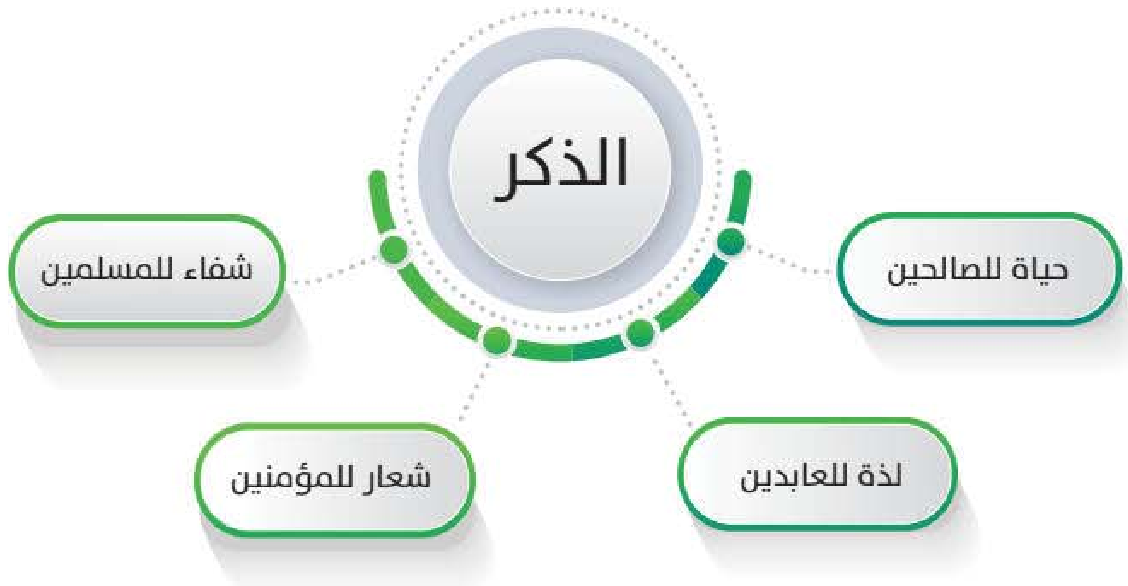
فإذا كان أهل الجنة الذين أكرمهم الله بالأمان من العذاب، وأدخلَهم الجنة بغيرِ حساب، يتحسَّرون على ساعةٍ لم يذكروا فيها اسم الله، فكيف بأهل النار!

> ذكر الله تعالى دليل محبة العبد ربه تعالى، وترك ذكره حسرة وندامة

## من فوائد ذكر الله تعالى:

قال ابن القيم رحمه الله: «وفي الذكر أكثر من مائة فائدة»[٨]، واليك أخي عدداً من هذه الفضائل التي تظهر بعض أسراره:

(١) أخرجه البيهقي (٦٩٢).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٧).
(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ص (٤٢).
(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، (٦٩١).
(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٠٥).
(٦) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥٧٢).
(٧) أخرجه أبو داود (٥٥٨٤).
(٨) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ص (٤١).




١- أن الله جلّ في علاه يذكر الذاكرين ويباهي بهم، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: (يقولُ اللَّهُ تَعالَى: أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، وأنا معهُ إذا ذَكَرَنِي، فإنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ منهمْ)[١].

ومن لطيفِ فقهِ التابعين ما قاله ثابت البُناني رحمه الله: «إني أعلم متى يَذكُرُني ربي عزَّ وجلَّ، ففزِعوا منه، وقالوا: كيف تعلم ذلك؟ فقال: إذا ذكرته ذكرني»[٢].

٢- أنَّ الذكر سببٌ في إجابة الدعاء، ولذلك ينبغي تقديمُهُ على الدعاء، فعن فَضَالة بن عُبيد رضي الله عنه أنه قال: سمع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعو في الصلاة، ولم يذكر الله عزّ وجل، ولم يُصلِّ على النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (عَجَّل هذا)، ثم دعاه فقال له ولغيره: (إذا صلَّى أحدُكم فليبدأ بتحميدِ ربّه والثناءِ عليه، ثم ليُصلِّ على النبي، ثم ليدعُ بعدُ بما شاء)[٣].

وبهذا نعلم أن سبب نجاة النبي الكريم يونس عليه السلام كونه من المسبِّحين، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾[الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

فمن أراد النجاة من المصائب، والإفلات من الظَّلَمة والمكائد فعليه بذكر الله.

٣- أنّ حضور مجلس الذكر يؤجر فيه المرء ولو بلا نيَّة، وهذه يغفل عنها كثير من الناس، فما أعظمَ أن يؤجر المرء لمجرَّد العمل الظاهر دون مكابدة العناء في إصلاح النوايا والسرائر.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ لله ملائكةً يطوفون في الطُّرق يَلتمسونَ أهل الذِّكر... فيقول [أي الله تعالى]: (فأُشهِدُكُم أني قد غفرتُ لهم) قال: (يقولُ مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلانٌ ليس منهم، إنما جاءَ لحاجة) قال: (هُم الجُلساءُ لا يَشقى بهم جليسُهم)»[٤].

وهنا يُتنبه لأمر مهم، وهو أنّ الذكر لا يقتصر على التسبيح والتحميد ونحوه، بل إن من ذكر الله ذكرَ أمره ونهيه وما يتعلق به سبحانه؛ ولذلك فإن حضور مجالس العلم عمومًا من أعظم القرب.

> **الذكر لا يقتصر على التسبيح والتحميد ونحوه، بل إن من ذكر الله ذكرَ أمره ونهيه وما يتعلق به سبحانه؛ ولذلك فإن حضور مجالس العلم عمومًا من أعظم القرب**

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).
(٢) إحياء علوم الدين (٤٩٢/١).
(٣) أخرجه أحمد (٧٣٩٣٢) واللفظ له، وأبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٣٤٧٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(٤) أخرجه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩).

٤- أن الذكر يزيد في العلم ويصحح الفهم، ويفتح أبوابًا عظيمة من أبواب المعرفة، وكلّما أكثر طالب العلم من الذكر ازداد من المعرفة والعلم، وعرف الحقّ وأنكر الباطل، وذلك أنَّ وعاءَ العلم هو القلب، والذكر يطهّره ويزكّيه ولا يَدَعُه، حتى يجعله كالمرآة البيضاء فيرى الحقائق على ما هي عليه.

وأمّا الغافل عن ذكر الله، فيتراكب على قلبه الران والصدأ، ويعكّر عليه صفوه ويفسد عليه تصوّرَه وإدراكَه، حتى يطمس نورَه، ويجعله يرى الباطل في صورة الحقّ، والحقَّ في صورة الباطل، وفيه قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

ولذكر الله تأثيرٌ عجيب على قوة العقل، فبه يتعمّق الفهم وتقوى الذاكرة، ولذلك يُنصح كل من أغلقت عليه مسألة أو أحسَّ من ذاكرته ضعفًا أنْ يُكثر من ذكر الله، فبذلك تعظُمُ الذاكرة وتقوى، ويسهُلُ التذكُّر والاستنباط.

وإنّ من تلبيس إبليس ومكايد الشيطان لأهل التعلم والتدريس، الانشغال التامُّ في طلب العلم وتعليمه عن باقي العبادات كالصلوات والصدقات والنوافل المستحبات، والغفلة عن ذكر رب الأرباب، فالذكر هو مفتاح المغاليق، وفيه ما الله به عليم من التوفيق.

٥-من فضائله أنَّ فيه سرًا يسري إلى الإنسان، فيمُدُّه بالقوة المعنوية والحسية، ويطرد عنه العجز والكسل والأمراض الروحية والجسدية.

ومما يدلُّ على ذلك حديث عليٍّ رضي الله عنه أن فاطمةَ اشتكت ما تلقى من الرَّحى في يدها، فقال صلى الله عليه وسلم: (ألا أعلِّمكما خيرًا مما سألتما، إذا أخذتما مضاجعكما، أن تُكبرا الله أربعًا وثلاثين، وتُسبِّحاه ثلاثًا وثلاثين، وتَحمداه ثلاثًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم)[1].

فهنا أرشدهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى أنَّ الذكر خيرٌ لهما من خادم؛ لأنَّ الذكرَ فيه أجور أخروية، وقوّة دنيوية، وفي هذا الحديث يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «بلغنا أنه من حافظَ على هذه الكلمات لم يأخذه إعياء فيما يعانيه من شغل ومن غيره»[2].

ويقول تلميذه ابن القيم رحمه الله: «الذكر يعطي الذاكرَ قوَّةً، حتى إنَّه ليفعلُ مع الذكر ما لم يظنَّ فعله بدونه، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سُننه وكلامه وإقدامه وكتابه أمرًا عجيبًا، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جُمعةٍ وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمرًا عظيمًا»[3].

ومن عرف ما سبق فقِه السّر من وصية الإكثار من الذكر عند لقاء العدو في قوله تعالى:﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأنفال: ٤٥].

٦- أنه يُنوِّر الوجه والقلب، ويجعل للذاكر مهابةً فريدة، يكسوها الجلال والجمال، والحلاوة والنُّضرة، ولذلك تجدُ للذاكرين نورًا يشعُّ من وجوههم، فهو ينير طريقهم في الدنيا والآخرة، وما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى؛ ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: (اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي بصري نورًا، وفي سمعي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، واجعل لي نورًا)، وفي رواية زيادة: (عَصَبي ولحمي ودمي وشعري وبَشَري)[4].

وكلُّ ذلك هو استحضارٌ لقول الله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

ولابن قيم الجوزية رحمه الله عبارةٌ جميلةٌ يقول فيها: «فدين الله عزَّ وجلَّ نور، وكتابه نور، ورسوله نور، وداره التي أعدها لأوليائه نور يتلألأ، وهو تبارك وتعالى نور السماوات والأرض، ومن أسمائه النور، وأشرقت الظلمات لنور وجهه»[5].

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٥)، ومسلم (٢٧٢٧).
(٢) الوابل الصيب، ص (٩٧).
(٣) المرجع السابق ص (٧٧).
(٤) أخرجه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣).
(٥) الوابل الصيب، ص (٥٠).




٧-وأخيرًا: إنَّ من فضائل الذكر العامّة أنّه سببٌ لحصول كِل مرغوبٍ في الدنيا وكلِّ مطلوبٍ في الآخرة، وأمانٌ ونجاةٌ من كلِّ محذورٍ في الدنيا وكلِّ مرهوبٍ في الآخرة، وما يذكُره العلماء إنَّما هو غيضٌ من فيض، وقطرةٌ من محيط، أشرتُ إلى بعضها، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

## أهم الأذكار وأصولها وبعض لطائفها:

## ما هو أهم الأذكار؟

القرآن الكريم لا يعلوه ذكرٌ، ولا يعدلُهُ قولٌ، ولا يُدانيه كلام، وهو مقدّمٌ على جميع الأذكار، ولذلك لا يُقارَن بغيره من الذكر، قال تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وباقي الأذكار مأخوذةٌ منه؛ ولهذا قال من أوتي جوامع الكلم عليه الصلاة والسلام: (أفضلُ الكلام بعد القرآن أربع وهنَّ من القرآن: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر»[١].

## أصول الأذكار وأهمها بعد القرآن الكريم سبعة:

التسبيحُ، والتحميدُ، والتهليلُ، والتكبيرُ، والحوقلةُ والاستغفارُ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. وهذه الأذكار السبعة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: أذكار الحمد والثناء وهي الخمسة الأولى.

والقسم الثاني: أذكار الطلب والدعاء وهي الذكران الأخيران.

## بعض اللطائف المتعلقة بهذه الأذكار السبعة:

١-التسبيح: وهو قول «سبحان الله»، وهو تنزيه الله سبحانه وتعالى من كل ما لا يليق به جلَّ في علاه، وقد ورد ذكرُ التسبيح في القرآن أكثر من ثمانين مرة[٢]، ومن عجائب التسبيح أنّه يشرح صدر المهموم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨)﴾[الحجر: ٩٧، ٩٨].

٢-التحميد: أي قول «الحمد لله»، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أفضلُ الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله)[٣]، فجعل صلى الله عليه وسلم حمدَ الله أفضلَ الدعاءِ، وهذا نظير ما في قول الله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، فجعل الله سبحانه وتعالى الحمدَ من الدعاء مع أنَّ الحمد إنّما هو ثناءٌ على المحمود مع حبِّه.

والسرُّ في ذلك والله أعلم: أن الدعاءَ دعاءان: دعاء ثناء، ودعاء مسألة، وأفضل الدعاء هو الحمد الذي هو من دعاء الثناء، وكذلك فيه إشارةٌ إلى تعليم الله لنا أنَّ من آداب الدعاء افتتاحه وختمه بحمد الله

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٢٢٣).
(٢) انظر فقه الأدعية والأذكار (١/ ٢٠١).
(٣) أخرجه الترمذي في جامعه برقم: ٣٣٨٣.

جل في علاه؛ بل يكفي للداعي أنْ يحمد الله فينال ما يطلبه ويتمناه.

**الدعاءَ دعاءان: دعاء ثناء، ودعاء مسألة، و أفضل الدعاء هو الحمد الذي هو من دعاء الثناء، ومن آداب الدعاء افتتاحه وختمه بحمد الله جل في علاه؛ بل يكفي للداعي أنْ يحمد الله فينال ما يطلبه ويتمناه**

ومن لطائف الآثار ما روي عن مالك بن الحارث أنه قال: «قال الله تبارك وتعالى: مَن أشغَلَه الثناء عليّ عن مسألتي؛ أعطيتُه أفضلَ ما أعطي السائلين. ثم التفت إلينا سفيان بن عيينة، فقال: أما سمعتم قول أمية بن أبي الصَّلت حيث أتى ابن جدعان يطلب نائِلَهُ، فقال:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني
حياؤُك إن شيمَتَكَ الحياء

إذا أثنى عليك المرءُ يومًا
كفاه من تَعَرُّضكَ الثناء

كريم لا يُغيِّره صباح
عن الخُلُق الجميل ولا مساء

يُباري الريح مَكرَمة وجودًا
إذا ما الضَّبُّ أجحَرَهُ الشتاء

فأرضُك كل مَكرُمةٍ بَنَاها
بنو تَيم وأنتَ لهم سماء

فأعطاه وَوَصلَه؛ فهذا مخلوق اكتفى بالثناء عليه عن المسألة؛ فكيف الخالق عز وجل الذي ليس كمثله شيء؟!»[1].

**قول «لا إله إلا الله»، هو أعلى الأذكار وأشرفها؛ لأنها كلمة التوحيد، وصراط العزيز الحميد**

٣-التهليل: أي قول «لا إله إلا الله»، وهو أعلى هذه الأذكار وأشرفها؛ لأنها كلمة التوحيد، وصراط العزيز الحميد في مقابل سبل الشيطان المريد، فهي الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أفضلُ الذكِر لا إله إلا الله)[2].

ومن الأحاديث العظيمة في فضل التهليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من قال: لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير، في يومٍ مائةَ مرة، كانت له عَدلَ عشرِ رِقاب، وكُتبت له مائةُ حسنة ومُحيت عنه مائةُ سيئة، وكانت له حرزًا من الشيطان، يومه ذلك، حتى يمسي، ولم يأت أحد أفضل مما جاء به إلا أحدٌ عمل أكثر من ذلك)[3].

ولا يخفى ما فاتنا في هذه الأيام من عتق الرقاب، فلطُف بنا الله الكريم، وأكرمنا بالاستعاضة عن ذلك بذكره وتوحيده، فتأمل هذه الحكمة العظيمة في معادلة الذكر بعتق الرقاب، فالحمد لله على نعمائه.

ومن اللطائف أنّه قيل لأبي الدرداء رضي الله عنه: إن رجلاً أعتق مائة نَسمة قال: «إن مائة نَسمَة من مال رجلٍ لكثير، وأفضل من ذلك إيمان ملزوم بِاللَّيلِ والنَّهار، وأن لا يزال لِسان أحدكُم رطبًا من ذكر الله»[4].

وفي هذا يقول ابن رجب رحمه الله: «وقد تكاثرت النّصوص بتفضيل الذّكر على الصّدقة بالمال وغيره من الأعمال... يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «لأَنْ أُسبِّح الله تعالى تسبيحاتٍ أحبُّ إليَّ من أن أُنفق عددهنَّ دنانير في سبيل الله»... وكذلك قال غيُر واحدٍ من الصحابة والتّابعين، إنّ الذّكر أفضل من الصّدقة بعدده من المال»[5].

٤-التكبير: أي قول «الله أكبر»، فهو سبحانه وتعالى أكبر من كل شيء، وهذا أولى من قولهم: أكبر مما يُعلم ويوصف؛ لأن بعض المخلوقات أكبر مما يُعلم ويوصف كنعيم الجنة يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

والتكبير من الأذكار العظيمة المصاحبة للمسلم في كثير من العبادات، فالتكبير من أركان الصلاة، والمسلم في الصلوات الخمس المكتوبة فقط يكبر أربعاً وتسعين تكبيرةً، فضلًا عن السنن والنوافل والأذكار وباقي العبادات.

(١) المجالسة وجواهر العلم (٤٩)، والحديث القدسي ضعيف الإسناد، وممن رواه الترمذي (٢٩٢٦).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣).
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٩٣)، ومسلم (٢٦٩١).
(٤) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب وقال: رواه ابن أبي الدنيا موقوفا بإسناد حسن (٢/٢٥٣).
(٥) جامع العلوم والحكم ص (٢٢٥).

وهذه الأذكار الأربعة السابقة تسمى بـ «الباقيات الصالحات»، وهن الوارد ذكرهنّ في قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خذوا جُنَّتكم، قالوا: يا رسول الله، أمِن عدوٍ قد حَضر؟ قال: لا، ولكن جُنَّتُكم من النار قولَ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهنّ يأتينَ يوم القيامة مُجَنِّبَاتٍ وَمُعَقِّبَاتٍ، وهن الباقيات الصالحات)[1]. ومعنى الباقيات أي التي يبقى ثوابُها ويدوم، وهو خير ما يؤمِّله العبد.

وهنّ أحبُّ الكلام إلى الله، قال صلى الله عليه وسلم: (أحبُّ الكلام إلى الله أربع: سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلا الله، واللهُ أكبر، لا يَضرُّك بأيهنَّ بدأت)[2].

ولعلَّ السرَّ في تفضيل هذه الكلمات الأربع والله أعلم تضمُّنُها لجميع أسماء الله سبحانه وتعالى، بيّن ذلك سلطان العلماء الإمام عزُّ الدين بن عبد السَّلام رحمه الله في كلامٍ نفيس[3].

> **تسبيح الله تعالى، وحمده، وتهليله، وتكبيره هو أفضل الذكر، وهي «الباقيات الصالحات»؛ لتضمنها جميع أسماء الله تعالى**

٥-الحوقلة: وهي قول «لا حول ولا قوّة إلا بالله»، وورد في بعض الروايات إضافتُها للباقيات الصالحات، فكأنّ المحوقل بعد الكلمات الأربع يقول: يا رب لقد أعنتني على ذكرك بمحضِ فضلك وقوّتك، فأنعم عليَّ بالمداومة على ذكرك وشكرك.

ومن أروع الأحاديث الجامعة بين هذه الأذكار الخمسة، قولُ النبي صلى الله عليه وسلم: (مَن تَعارَّ من الليلِ، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا، استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته)[4].

فالاستغفار بعد هذه الأذكار العظيمة مستجاب، وقد خُصَّ الاستغفار بالذكر في الحديث مع أنّه داخل في مجمل الدعاء؛ للإشارة لأهميّته وأنّه أرجى ما يطلبه العبد.

٦-الاستغفار: أي قول «أستغفر الله»، وهو طلب المغفرةِ وسترِ الذنب من الله تعالى، والاستغفار يزيد في العقل والعلم والقوة عامةً؛ ودليل ذلك قوله تعالى على لسان سيدنا هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)﴾ [هود: ٥٢].

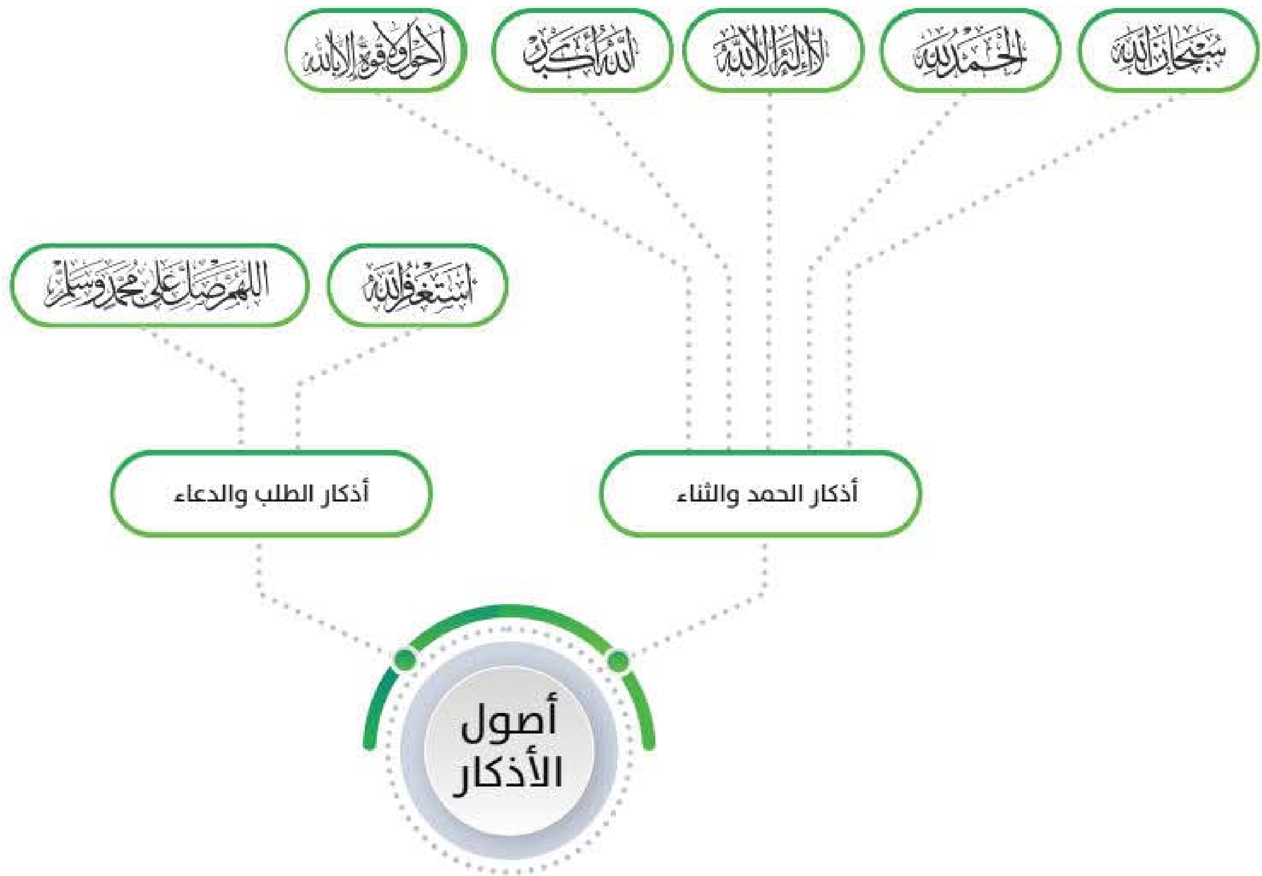
وإذا زادت القوة زادت الأموال عمومًا وكثرت الذريَّة؛ ولذلك قال تعالى على لسان نبيّه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢)﴾ [نوح: ١٠-١٣].

ومن اللطائف الدقيقة لشيخ الإسلام ابن تيمية قول ابن القيم: «قلت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يومًا: سئل بعض أهل العلم أيهما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقياً فالبخور وماء الورد أنفع له، وإذا كان دنساً فالصابون والماء الحار أنفع له»[5].

ولكن الاستغفار والدعاء موقوف حتى يُصلّى على خير الأنام صلى الله عليه وسلم بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: (إنَّ الدعاءَ موقوفٌ بين السماءِ والأرض لا يصعد منه شيء، حتى تُصلي على نبيك صلى الله عليه وسلم)[6]. وهذا ينقلنا للذكر الأخير وبه يكون مسك الختام.

٧-الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: ومن عظيم فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أنَّ الله تعالى بعظمته وجلاله يُصلّي على النبيِّ صلى الله

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠٦١٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢١٣٧).
(٣) جزء في تفسير الباقيات الصالحات للعلائي، ص (٤٠).
(٤) أخرجه البخاري (١١٥٤).
(٥) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ص (٩٢).
(٦) أخرجه الترمذي (٤٨٦).




عليه وسلم قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قال أبو العالية: «صلاةُ الله: ثناؤهُ عليه عند الملائكة، وصلاةُ الملائكة الدعاء»[1]، فصلاة الملائكة والآدميين هي سُؤالهم الله تعالى أن يُثني على النبي صلى الله عليه وسلم في الملأ الأعلى.

وللصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم من الفضائل ما لا يُعدّ، وقد أُفردت الكتبُ والمؤلّفات في الحديث عن هذا الذكر العظيم، ويكفي في ذلك أنّ أبي بن كعب قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله إني أُكثِر الصلاةَ عليك، فكم أجعلُ لك من صلاتي؟ فقال: ما شئتَ. قال: قُلتُ: الربع؟ قال: ما شئتَ، فإن زدتَ فهو خير لك. قلتُ: النصف؟ قال: ما شئتَ، فإن زدت فهو خير لك. قال: قُلتُ: فالثلثين؟ قال: ما شئتَ، فإن زدتَ فهو خير لك. قُلتُ: أجعلُ لك صلاتي كلها. قال: إذًا تُكفى هَمَّكَ، ويُغفرُ لك ذنبُك[2].

> **الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيها ذكر لله تعالى، وسؤال له بالثناء على رسوله في الملأ الأعلى، مع تعظيم للرسول صلى الله عليه وسلم؛ لذا كانت من أفضل الذكر والدعاء**

وختامًا: فينبغي للمسلم أنْ يُحافظ على هذه الأذكار العظيمة، وقليلٌ دائمٌ خيرٌ من كثيرٍ منقطع؛ فأحبُّ الأعمال أدومُها وإنْ قلّ. قال الإمامُ الغزاليُّ وهو العارفُ بمدى تأثير الذكر وكيفية حصوله: «وكلُّ وظيفةٍ لا يُمكن المواظبةُ على كثيرها فقليلها مع المداومة أفضلُ وأشدُّ تأثيرًا في القلب من كثيرها مع الفترة، ومثال القليل الدائم كقطرات ماء تتقاطر على الأرض على التوالي فتحدث فيها حُفيرة ولو وقع ذلك على الحجر، ومثال الكثير المتفرِّق ماءٌ يُصَبُّ دفعةً أو دفعاتٍ متفرِّقة متباعدة الأوقات فلا يبين لها أثر ظاهر»[3].

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا في صحيحه (٦/١٢٠).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٥٧)، وقال: هذا حديث حسن.
(٣) إحياء علوم الدين (١/٣٣٣).

# قاعدة «المنار» في التعاون والإعذار

أ. فايز الصلاح[1]



يقع الخلاف بدرجاته وأنواعه بين الناس، وهم منه على مواقف مختلفة: فمنهم من يتوسع في إعذار المخالف، ومنهم من يضيق، وقاعدة «المنار» مما حاولت ضبط التعامل مع هذه الخلافات، وأنواعها.

منذ قرنٍ من الزمان أطلق الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله - صاحب مجلة المنار - قاعدةً في فضاء الحركة والدعوة، وسَمَها بـ «قاعدة المنار الذهبية»، والتي تنص على أننا: «نتعاون على ما نتَّفق عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما نختلف فيه»[2]، أو «نتعاون على ما نشترك فيه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما نختلف فيه»[3].

خاطب الشيخ محمد رشيد رضا بهذه القاعدة جميع رعايا الدولة العثمانية في عصره، من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين وغيرهم من أهل الملل والنحل في الدولة؛ لتحقيق المصالح المشتركة فيما بينهم. وقال: «إنَّ لنا في هذه الأيام أفضل فرصة لإقناع أبناء جنسنا ووطننا، بما نتحدّث به دائمًا فيما بيننا من حسن نيتنا، ورغبتنا في الاتفاق معهم على كل ما فيه مصلحتنا المشتركة بيننا وبينهم على قاعدة المنار الذهبية: (نتعاون فيما نشترك فيه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما نختلف فيه)»[4].

> **خاطب الشيخ رضا بهذه القاعدة جميع رعايا الدولة العثمانية من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين وغيرهم؛ لتحقيق المصالح المشتركة فيما بينهم**

ودعا إلى استعمالها مع الشيعة، فقال: «... بيد أنني أرى أن ما نسعى إليه من جمع الكلمة، ووحدة

(١) ماجستير في الشريعة، باحث متخصص في الدراسات الشرعية، عضو مجلس الإفتاء في المجلس الإسلامي السوري.
(٢) ينظر: مجلة المنار (٣١/ ٢٩٠)، (٣٢/ ٢٣٢)، (٣٢/ ٢٨٤)، (٣٣/ ٧٣)، (٣٤/ ٤٥١).
(٣) ينظر: مجلة المنار (١٧/ ٣١٧)، (١٧/ ٩٥٥)، (٢٢/ ٦١٧).
(٤) مجلة المنار (١٧/ ٩٥٥).

الأمة. لا يُرجى نجاحه من طريق الدين إلا بسعي علماء الطائفتين له على القاعدتين اللتين رفعنا بنيانهما في المنار.

الأولى: (نتعاون على ما نتفق عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما نختلف فيه).

والثانية: (من اقترف سيئة من التفريق والعداء أو غير ذلك من إحدى الطائفتين بقول أو كتابة فالواجب أن يتولى الرد عليه العلماء والكتاب من طائفته)»[١].

## فما مفهوم الشيخ محمد رشيد رضا لهذه القاعدة، وكيف طبَّقها؟

أما الجزء الأول من القاعدة، فقد شرح المراد منها بكل جلاء بقوله: «إن المسلمين واليهود والنصارى والصابئين وغيرهم من أهل الملل والنحل الذين تضمُّهم العثمانية على اختلاف المذاهب في الملة الواحدة منهم، كلهم عثمانيون لا يكونون سعداء في معيشتهم أعزاء في وطنهم، إلا بعمران المملكة، وعزّة الدولة وشرفها، فيجب أن يتّحدوا ويتعاونوا على عمران هذه البلاد بالأعمال الزراعية والصناعية والتجارية المشتركة بينهم»[٢].

وأما الجزء الثاني فيشرح المرادَ من الإعذار بقوله: «أن لا يتعادوا فيما يختلفون فيه، بل يجب أن يتحرَّوا مع ذلك حسن المعاشرة، وآداب المجاملة»[٣].

ويُسمي الشيخ شقَّ التعاون في قاعدته بـ «المرتبة العليا»، أو القسم الإيجابي (الفعل)، والإعذار بالقسم السلبي (أو الترك) فيقول:

«تلك (أي التعاون) هي المرتبة العليا للجامعة العثمانية بينَّاها لترغيب المستعدين لها فيها، وتنبيه محبي الإصلاح للدعوة إليها، فإذا تعذر العروج إليها في هذا العصر والتمكن من قسميها السلبي والإيجابي معًا (السلبي هو ترك التعادي والتباغض والتدابر، والإيجابي هو الائتلاف والاشتراك في المواقف والمنافع الدنيوية والتربية الفنية والعلمية) فإننا نكتفي منها بالقسم السلبي لأنه ترك، والترك ميسور في كل وقت» ومن هنا يُعلم أن الشيخ محمد رشيد رضا لم يقصد بالإعذار أن يُقرّ أهل الباطل على باطلهم، ولا أن يسكت عنه. وكيف يُظن به ذلك وجهوده في الرد على أباطيل النصارى[٤]، وسخافات الشيعة[٥] معلومة منتشرة؟

> **لم يقصد الشيخ محمد رشيد رضا بالإعذار في قاعدة «المنار» أن يُقرّ أهل الباطل على باطلهم، ولا أن يسكت عنه**

وقد أضاف الشيخ رشيد رضا في أحد المواضع التي شرح فيها القاعدة عبارة ثالثة، فقال: «أن يتعاضدوا ويتعاونوا على ما يشتركون فيه ويتفقون عليه، ويعذر بعضهم بعضًا فيما يفترقون فيه، ويحكِّموا الشرع والميزان فيما يتنازعون عليه»[٦]، وهذه الإضافة ظاهرة بأنه لم يقصد مطلقاً إقرار الباطل أو الرضا به. ثم أخذ هذه القاعدة عنه العديد من أهل العلم والدعوة حتى شاعت وانتشرت.

## تنزيل القاعدة واستعمالها في غير ما وضعت له:

لكن كثر في زماننا تنزيل القاعدة -وخاصة في

---

(١) مجلة المنار (٣٢/ ٢٣٢).

(٢) مجلة المنار (١٥/٨٣٣).

(٣) المرجع السابق

(٤) من آثار الشيخ محمد رشيد رضا كتاب (شبهات النصارى وحجج الإسلام)، وينظر أيضا: جهود الشيخ محمد رشيد رضا في الرد على عقائد النصارى، لعبد الرحمن العواجي، وكتاب: الرد على النصارى في مجلة المنار، كتاب إلكتروني.

(٥) من الرسائل التي تركها الشيخ رضا رسالة "الشيعة والسنة"، ويكفي قراءة هذه الرسالة من محمد الحسين كاشف الغطاء لمعرفة شدة تأذِّيهم من ردود الشيخ عليهم: "فرجائي إلى الأستاذ صاحب المنار أن لا يعود إلى ما فرط منه كثيرًا من التحريش بالشيعة، ونشر الأبحاث والمجادلات مع بعض علماء الإمامية، والطعن المر على مذهبهم الذي لا يثمر سوى تأجيج نار الشحناء والبغضاء بين الأخوين، ولا يعود إلا بيلاء الضعف والتفرقة بين الفريقين، ونحن في أمس الحاجة اليوم إلى جمع الكلمة، وتوحيد إرادة الأمة، وإصلاح ذات البين والأستاذ الرشيد – أرشد الله أمره – ممن يعد في طليعة المصلحين، وكبار رجال الدين، فبالحري أن يقصر (مناره الإسلامي) على الدعوة إلى الوفاق والوئام، وجمع كلمة الإسلام، ويتجافى في كل مؤلفاته – سيما في تفسيره الخطير–عن كل ما يمس كرامة، أو يثير عصبية أو حمية، أو يهيج عاطفة، وأن يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فإن ذلك أنجع وأنفع، وأعلى درجة عند الله وأرفع. حرره في زاوية النجف الأشرف المقدسة يوم النصف من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٥٠ هـ محمد الحسين آل كاشف الغطاء". كما ألف المرجع الشيعي اللبناني محسن الأمين العاملي رسالة سماها "الحصون المنيعة في الرد على ما أورده صاحب المنار في حق الشيعة".

(٦) مجلة المنار (١٥/٨٣٣).

شقها الثاني- على ما هو أبعد مما وضعت له، فأريد من «العذر» البحث عن تبرير للمخالف بما يهوّن من مخالفته مهما كانت، بل وربما التماس وجه لصحة قوله، وأقلّ ذلك التثريب على من يتصدى لبيان المخالفة وحكمها في الشرع، فوقع الخلل في تطبيقها.

> **نُزّلت القاعدة بعد ذلك على غير مراد قائلها، فصارت وسيلة للبحث عن تبرير للمخالف بما يهوّن من مخالفته مهما كانت، وربما التماس وجه لصحة قوله**

ولعل من أسباب هذا الخلل استصحابهم للمعنى اللغوي العام الذي تذكره معاجم اللغة، وإغفال السياق الذي جاء فيه هذا اللفظ في القاعدة الذهبية: إذ تذكر المعاجم في معنى «عَذَرَه»: «رفَع عنه اللَّومَ والذَّنبَ، ولم يؤاخذه، سَامَحَهُ، وَجَدَ له حُجَّة فيما فعل»[1].

ولا شكَّ أن هذا الإطلاق لم يُرده منشئ القاعدة كما رأينا من كلامه. فلما استخدم القاعدة من استخدمها بهذا الإطلاق حصل الخلاف فيها بين قابل لها ورادّ، ونقدها العديد من العلماء المعاصرين المحقّقين ولم يرضوها.

والسبب في ذلك أنَّ في هذه القاعدة إجمال، فكان لا بد من الاستفصال، وهذه هي طريقة أهل السنة والجماعة في الألفاظ المجملة المشتبهة المحتملة للحق والباطل.

إذ أن منهجهم في ذلك: أن اللفظ المجمل المحتمِل للمعنى الحق والباطل لا يجوز إثباته مطلقًا، ولا نفيه مطلقاً؛ لأنَّ في إثباته إثباتٌ للمعنى الباطل، وفي نفيه نفيٌ للمعنى الحقّ، ومن ثَمَّ فلا يجوز استعماله إلا بنوع من التقييد، أو يُنحّى جانبًا ويستبدل به الألفاظ الواضحة البينة الصريحة غير المشتبهة.

ولما استعمل اليهود كلمة «راعِنا» في معنى خبيث، نُهيَ الصحابةُ عن استعمالها مطلقًا، مع أنهم لا يريدون بها إلا المعنى الحق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

قال ابن تيمية رحمه الله: «وأما الألفاظ التي ليست في الكتاب والسنة، ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها، فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده، فإن أراد بها معنىً يُوافق خبر الرسول أقر به، وإن أراد بها معنىً يخالف خبر الرسول أنكره. ثم التعبير عن تلك المعاني إن كان في ألفاظه اشتباه أو إجمال عبر بغيرها، أو بيّن مراده بها؛ بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي؛ فإنَّ كثيرًا من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ومعان مشتبهة، حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاق ألفاظ ونفيها، ولو سئل كل منهما عن معنى ما قاله لم يتصوره فضلًا عن أن يعرف دليله، ولو عرف دليله لم يلزم أن من خالفه يكون مخطئًا، بل يكون في قوله نوع من الصواب، وقد يكون هذا مصيبًا من وجه وهذا مصيبًا من وجه، وقد يكون الصواب في قول ثالث»[2].

وحيث إن «القاعدة الذهبية» أجملت ذكر التعاون والإعذار، فحصل ما حصل من اللغط والردّ والقبول لها، وجب تقييدها لتحرير المعنى الذي تُصبح به مُوافِقة للحق الذي تدلُّ عليه النصوص، وتنفي عنها الباطل الذي قد يتمسك به أهل الجهل والهوى.

> **«القاعدة الذهبية» أجملت ذكر التعاون والإعذار، فحصل فيها اللغط، ووجب تقييدها لتحرير المعنى الذي تُصبح به مُوافِقة للحق الذي تدلُّ عليه النصوص**

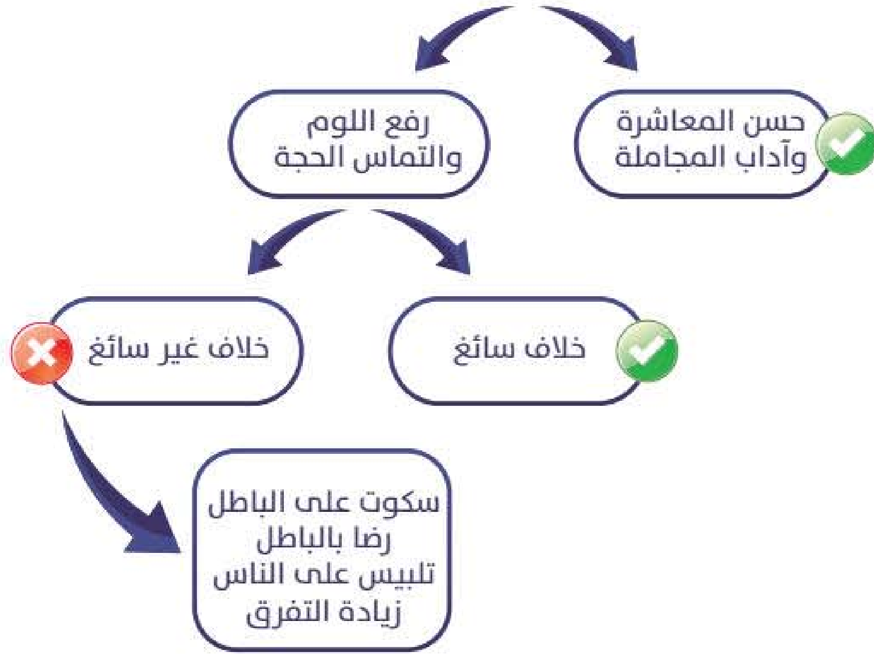
## ضوابط قاعدة التعاون والإعذار:

هذه القاعدة تشتمل على شقين: التعاون والإعذار.

فلا بد من التفصيل في حقيقة التعاون، متى يكون مصلحة ومتى يكون مفسدة، وكذلك العذر ماذا يراد به ومتى يسوغ ومتى لا يسوغ.

أما التعاون، فالأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[المائدة: ٢].

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة (١٤٧٤/٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١٢/ ١١٤).




والتعاونُ لا يشترط له الاتفاق في المنهج فضلاً عن الدين، بل يجوز التعاون حتى مع الكافر والمبتدع الضالِّ إذا كان ذلك يُحقق مصلحة شرعية راجحة، ولم يكن هناك مفسدة، أو كانت المفسدة يسيرةً محتملةً في مقابل المصلحة، كما قرّر ذلك العلامة ابن القيم رحمه الله، ففي معرض كلامه عن الفوائد الفقهية من صلح الحديبية تعليقًا على قول النبي صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسِي بيده لا يسألوني خُطَّة يعظِّمون فيها حُرُماتِ الله إلا أعطيتُهم إياها) [١]، قال رحمه الله: «ومنها: أن المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمراً يُعظمون فيه حرمة من حرمات الله تعالى، أُجيبوا إليه وأعطوه وأُعينوا عليه وإن مُنعوا غيره، فيُعاوَنون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك، فكل من التمس المعاونة على محبوبٍ لله تعالى مُرضٍ له، أُجيب إلى ذلك كائنًا من كان، ما لم يترتّب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه، وهذا من أدقّ المواضع وأصعبها وأشقها على النفوس»[٢].

وقال ابن تيمية: «فإذا تعذر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك إلا بمن فيه بدعة مضرتها دون مضرة ترك ذلك الواجب، كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيرًا من العكس»[٣].

وأما الإعذار: فهو مبني على نوع الاختلاف:

فإن كان الخلاف سائغًا، وهو اختلاف أهل السنة والجماعة فيما بينهم ضمن دائرة الخطأ والصواب، أو الصواب المتنوع، وهو الاختلاف الناتج عن أنظار الفقهاء المجتهدين في المسائل العلمية والعملية التي ليست من أصول الدين. فإذا استفرغ العالم وُسعه في تحري الحق، وحَسُن قصدُهُ في ذلك، واتَّبع سبيل المؤمنين في طلب الحق من الكتاب والسنة، وكان جامعًا لآلة العلم التي تُمكنه من معرفة الحق، وأخطأ في إدراك الصواب وحُكم الله في نفس الأمر؛ فهذا خطؤه مغفور، بل هو مُثاب على اجتهاده وتقواه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا حكم الحاكمُ فاجتهدَ فأصاب فله أجرانِ وإذا حكم فاجتهدَ فأخطأ فله أجرٌ واحدٌ)[٤].

ومن ثَمَّ فلا يجوز في هذا الاختلاف التضليل ولا التبديع، فضلاً عن التكفير، ولا يجوز الولاء والبراء

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١).
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢٦٩).
(٣) مجموع الفتاوى" (٢٨/ ٢١٢).
(٤) أخرجه البخاري (٦٩١٩)، ومسلم (١٧١٦).

والتعصُّب لأحدٍ هذه الأقوال، وإنما النقاش والجدال بالتي هي أحسن؛ لبيان الخطأ من الصواب بالدليل البيّن الواضح، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإن كان المخطئ المجتهد مغفورًا له خطؤه وهو مأجور على اجتهاده، فبيان القول والعمل الذي دلّ عليه الكتاب والسنة واجب؛ وإنْ كان في ذلك مخالفة لقوله وعمله، ومن عُلم منه الاجتهاد السائغ فلا يجوز أن يُذكر على وجه الذم والتأثيم له؛ فإنَّ الله غفر له خطأه؛ بل يجب -لما فيه من الإيمان والتقوى- موالاته ومحبته والقيام بما أوجب الله من حقوقه، من ثناء ودعاء وغير ذلك»[١]. وفي مثل هذه المسائل والحالات نقول: على كل صاحب اجتهاد أن يعذر صاحبه في اجتهاده المخالف له.

وأمّا الاختلاف غير السائغ، كالخلاف مع الكفار ، والخلاف في الكليات كالخلاف مع أهل البدع من الخوارج والرافضة والمعتزلة وغيرهم، فهذا اختلافٌ يُحمد فيه أهل الحق، ويُذمُّ فيه أهل الباطل ولا يُعذرون في شيء؛ إذ فيه من المحاذير: السكوت على الباطل، وتصحيح السبل الشيطانية، فما ثَمَّ إلا صراط واحد مستقيم، أو سبل مُعوجَّة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فإعذار المختلفين هو إقرارٌ ورضًى بهذه السبل المعوجّة، وتضييع للصراط المستقيم، قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحدٌ، وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد، فإنَّه متصل بالله، موصل إلى الله»[٢].

كما أنَّ في الإعذار تلبيسٌ على الناس، وتضييعٌ لعقيدة البراء من الكفار وأهل البدع، وتضييع للفرقان بين الحقّ والباطل.

ثم إنَّ في إعذار المخالفين في الكليات وعدم الإنكار عليهم تثبيت للتفرق، وزيادة في الاختلاف. والشريعة إنما بعثت لحسم مادة الخلاف، وليكون الناس أمة واحدة، قال الخطابي رحمه الله: «فأما الافتراق في الآراء والأديان؛ فإنه محظورٌ في العقول، محرَّمٌ في قضايا الأصول؛ لأنّه داعية الضلال، وسبب التعطيل والإهمال، ولو تُرك الناس متفرقين؛ لتفرَّقت الآراء والنحل، ولكثُرت الأديان والملل، ولم تكن فائدة في بعثة الرسول، وهذا هو الذي عابه الله عز وجل من التفرق في كتابه»[٣].

ولا يكون ذلك إلا بترك البدعة والعمل بالسنة، والاجتماع على الحق وترك الباطل، ففي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: (وعَظَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا بعد صلاة الغَداة موعظة بليغة، ذَرفت منها العيون، ووَجِلت منها القلوب، فقال رجل: إنَّ هذه موعظة مودِّع فماذا تعهدُ إلينا يا رسول الله؟ قال: أُوصيكم بتقوى اللهِ والسمعِ والطاعة، وإنْ عبدٌ حَبَشي، فإنَّه من يَعِش منكم يرى اختلافًا كثيرًا، وإياكم ومُحدثاتِ الأمور؛ فإنَّها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بِسُنَّتي وسنَّة الخلفاءِ الراشدين المهديينَ، عَضُّوا عليها بالنواجِذ)[٤].

> **إنَّ في إعذار المخالفين في الكليات وعدم الإنكار عليهم تثبيت للتفرق، وزيادة في الاختلاف. والشريعة إنما بعثت لحسم مادة الخلاف، وليكون الناس أمة واحدة**

### والخلاصة:

إنَّ هذه القاعدة: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه»، لا يمكن فهمها على مراد صاحبها إلا بتفصيل، فيقال: نتعاون فيما اتفقنا عليه مما لا يترتب عليه مفسدة، ويعذر بعضنا بعضًا فيما يسوغ فيه الخلاف.

أما في الخلاف غير السائغ فيجبُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتبيينُ الحقّ وكشفُ الباطل.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٣٤).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٨).
(٣) "العزلة" للخطابي (ص ٥٧-٥٨).
(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذي (٢٦٧٦) وقال: حسن صحيح.



# الصِّلات العلمية والتربوية عند أعلام المدرسة الإصلاحية في الشام

د. ياسين جمول[1]

تميزت المدرسة الإصلاحية في بلاد الشام بامتداد صِلات الرحم والمعرفة والعلم بين رموزها، وقد حملت صور ترابطهم وتواصلهم لوحات عظيمة من العلم، والتربية، وصفاء الروح، وفيما يلي وقفات مع عدد من هذه اللوحات.

قيل: العلم رَحِمٌ بين أهله. وأهلُه هم المشتغلون به؛ معلِّمين ومتعلِّمين، وعلى نحو ما تكون الصلات بين أرحام الدم يحسُن أن تكون بين مَن يجمعهم رحِم العلم، بل أفضل؛ لأنَّهم حمَلَة الدِّين، وقد قال شيخ المُصلحين في الشام القاسميُّ رحمه الله: «إنَّ الأساتذةَ آباءٌ في الدِّين؛ فجديرٌ بالعاقل أن يقدّرهم أقدارهم، وينشر مآثرهم وآثارهم، ويمحّضهم الشكرَ والدعاءَ لهم في السرّاء والضرّاء؛ والنَّسَبُ الرُّوحاني لا يقلّ -إنْ لم يتفوّق- عن النَّسَبِ الجِسمَاني»[2].

وحيث إنَّ المدرسة الإصلاحية في الشام نهايةَ القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين انطلقت مع البيطار والقاسمي والجزائري في ثورة إصلاحية في العلم والتعليم والدعوة والتأليف والجهاد[3]؛ فإنَّ النظر في الصِّلات العلمية لهذه المدرسة من الأهميَّة بمكان؛ لأنَّ رموزها قادوا نهضةً أعادت للشام ألقها وتصدُّرها، فامتدَّت ثمارها شرقًا وغربًا.

> **إنَّ الأساتذةَ آباءٌ في الدِّين؛ فجديرٌ بالعاقل أن يقدّرهم أقدارهم، وينشر مآثرهم و آثارهم، ويمحّضهم الشكرَ والدعاءَ لهم في السرّاء والضرّاء**
> **جمال الدين القاسمي رحمه الله**

(١) دكتوراه في الدراسات الإسلامية والأدب العربي، معيد في جامعة حمص سابقاً، باحث ومدقق في التراث.

(٢) جمال الدين القاسمي، العجمي، ص(١٠٧).

(٣) سبق في العدد الأول من مجلة رواء مقال بعنوان: "من ملامح المدرسة الإصلاحية في الشام" يحسن الرجوع إليه؛ فما في هذا المقال تفصيل لبعض المجمل هناك وإضافات لجوانب أخرى.

وتظهر الصلات العلمية عمومًا في ثلاثة مستويات: مع الشيوخ، ومع الطلاب، ومع الأصحاب والمتعاصرين، ولكثرة التشعُّب في هذه المستويات عند رموز المدرسة الإصلاحية، نقف معها وقفات تعطي ملامح تلك الصلات، ونستقي منها الدروس والعِبَر:

## أولاً: مع الشيوخ والمعلِّمين:

### الشيوخ من الأهل:

ما زال واقراً في النفوس أنَّ العلوم عامة -والشرعية منها خاصة- لا يمكن لمتعلِّم التميّز فيها إن كان شيخُه كتابَه فحسب، فكان الحثّ على أخذ العلم عن أهله، ومن كرم الله على المرء أن ينشأ في بيئة علمية تكون تربةً خصبةً له ليَنمُوَ ويَسمُوَ. ولعل هذا أوّل ما يطالعنا في أعلام المدرسة الإصلاحية في الشام؛ فهذا الشيخ عبد الرزاق البيطار يذكر شيوخه في إجازاته فيقول: «إني بحمد الله قد أخذتُ عن مشايخ كثيرين، واتصل سندي بهم بسيد المرسلين...، منهم، بل أفضلُهم لديَّ وأجلُّهم مِنَّةً عليَّ: سيدي الوالد الشيخ حسن بن إبراهيم بن حسن البيطار تغمّده الله برحمته وأحسن إليه في دار القرار؛ فإني قد حضرت عليه جملة من الفنون»[١]، ويترجم لوالده في كتابه «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» ترجمةً وافيةً بين الأعلام[٢]، بل يزيد في ذكر شيوخه فيسمّي بعد والده أخاه محمدًا أمين فتوى الشام وأخاه عبد الغني[٣].

وصاحبُه في الدعوة والإصلاح الشيخ جمال الدين القاسمي أفردَ ترجمة والده وشِعرَهُ بكتاب مستقل بعنوان: «بيت القصيد في ترجمة الإمام الوالد السعيد»، ومما قاله فيه: «وكم غذّاني بعوارف معارفه الحِسان، وأذاقني من حلاوة آدابه ما تجهَد فيه يدُ الإمكان، وبذلَ قصارى اجتهاده في إمدادي وإسعادي»[٤]، وقال: «وكان سيدي الوالد رضي الله عنه حينما يراني مواظبًا على دروسي ومطالعتي يزداد في دعواته الصالحة للفقير، وينظم في رضائه عني أبياتًا يشوّقني في دوام الاجتهاد...؛ وأعظم شيء عندي من جليل أدعيته قوله لي أغلب الأوقات: الله يرضى عليك كما رضي على الصِّدِّيق»[٥]؛ فما أجملها من تربية وما أجلّها من دعوات!

ومن بعدهما ربيبُهما معًا الشيخ بهجة البيطار، أخذ عن أبيه الشيخ بهاء الدين وأخذ أكثرَ عن جدّه لأمّه الشيخ عبد الرزاق البيطار[٦].

ونجد في سيرة الشيخ بدر الدين الحسني أنّه بدأ الطلب على والده أولاً، فلما مات دفعته أمّه -وكانت من أسرة علمية عريقة من آل الكزبري- إلى أبرز شيوخ عصره[٧]؛ فكانت أمُّه خيرَ موجّه له حتى صار محدّث الشام.

لكنّ الآباء ليسوا سواءً في العناية بأبنائهم كما هو حالنا اليوم، لذا نجد الطنطاوي وهو يكتب كلماتٍ بماء العيون عن والده الشيخ مصطفى، لا يُخفي أن غيره انتفع بعلم والده أكثر منه، فيقول: «كان حظّي من علم أبي دون حظوظ الآخرين؛ وما كنتُ أراه إلا طرفَي النهار، وإنْ كان في الدار لم يخلُ من أصدقاء أو زوّار؛ ولو أنَّ الله ألهمَه أن يتفرّغ لي أو يُوليَني مثل الذي كان يوليه المقرّبين من تلاميذه، لَرجوت أن أنتفع به أكثر مما انتفعوا»[٨]، وكان أبي «من صدور الفقهاء ومن الطبقة الأولى من المربّين والمعلّمين؛ ولكنه كان كأكثر المدرّسين والدعاة ربما شغلته مدرستُه ومسجدُه عن الإشراف الدائم على أولاده»[٩]؛ فهذه رسالة للآباء في التنبُّه للأبناء، وللأبناء للحملِ عن آبائهم، فلا يتركوا خيرًا هم أَولى الناس به.

ومن تأكيدهم لأهمية حفظ العلم في الأبناء ما قاله الشيخ بهجة البيطار للشيخ بهجة الأثري في رسالة تعزيته بعلّامة العراق محمود شكري الآلوسي: «ولذا رجوتُ.. في كتابي السابق أن ينوب عنّي بتعزيتهم؛ ولعلَّ فيهم مَن يشتغل في العلم فيسدّ بعض فراغ الفقيد إن شاء الله»[١٠].

(١) عبد الرزاق البيطار، للعجمي، ص(١٧).
(٢) حلية البشر، (٤٦٣/١).
(٣) عبد الرزاق البيطار، ص(١٨).
(٤) القاسمي، للعجمي، ص(٣٢).
(٥) جمال الدين القاسمي، ظافر القاسمي: ص(٣١)، والقاسمي، للعجمي، ص(٥٨).
(٦) الشيخ محمد بهجة البيطار وجهوده في الدعوة والإصلاح، أحمد الشهري، ص(٦٣).
(٧) محدّث الشام الشيخ بدر الدين الحسني، للرشيد، ص(١٥).
(٨) الذكريات، للطنطاوي، (٢٤٨/١).
(٩) الذكريات (٩٩/٢).
(١٠) الرسائل المتبادلة بين جمال الدين القاسمي ومحمود شكري الآلوسي، للعجمي ص(٣٨).

> **كانت الإجازات العلمية بمثابة الشهادات الجامعية اليوم**
> **علي الطنطاوي رحمه الله**

## الإجازات:

ومما يستوقف في صلات المُصلحين بشيوخهم: الإجازات؛ فهي الرابطة التي تؤكّد قرابة العلم للمرء بشيخه، فكانت الإجازات بمثابة الشهادات الجامعية اليوم كما يقول الطنطاوي[١]، لذا نجد تأكيدهم على تحصيلها من شيوخهم، قال القاسمي: «وقد أجاز لي إجازةً عامةً كثيرٌ من كبار الشيوخ»، ثم ذكر مَن أجازوه مِن الدمشقيّين وغيرهم[٢].

وفي الإجازات أدبٌ جمٌّ وعلمٌ وتاريخٌ، يحسن بها بحث مستقل[٣].

## الأدب في مخالفة الشيوخ.. والوفاء لهم:

والإجازات لهم من شيوخهم لا تعني التقليد الأعمى دون مخالفة للشيوخ أبداً؛ وإلا كانوا استمرارًا لِمَا كان عليهم عامة أهل الشام دون النهضة الإصلاحية التي قاموا بها، فقد قرأ أستاذ القاسمي الشيخ بكري العطّار حديثًا صحيحًا ثمَّ قال بعد قراءته: «إنَّ هذا الحديث مُشكِل؛ لأنَّه يخالف مذهب الشافعي الذي نحن عليه، فأجابه قائلاً: يا أستاذ! هل الإشكال في الحديث الصحيح الصريح في الحكم؟ أم الإشكال في المذهب الذي خالفَه؟! فتنبَّه عند ذلك الشيخ العطّار وأدرك خطأه وقال له: صدقت؛ فإنه لا إشكال في الحديث، إنَّما الإشكال في مذهبنا الذي خالفَه»[٤].

ويَذكُر القاسميّ شيخَه الخاني بكل إجلال، وإنْ تركَ طريقتَه النقشبندية التي التزمها معه، ليسلك منهج السلف، دون أنْ يُفسد هذا صلته بشيخه، فيقول: «ولم أنقطع عن زيارته، وكان يتودّد إليّ ويعظّمني... وبالجملة فهو من أفضل أشياخي الذين انتفعتُ بمجالسهم وتأدّبت بآدابهم واغتبطت بصحبتهم»[٥].

وهذا الوفاء بين العلماء وشيوخهم أمرٌ بادٍ فيهم؛ إذ يصف الإمام محمد رشيد رضا القاسميَّ فيقول: «وكان تقيًّا ناسكًا... وفيًّا للإخوان، يأخذُ ما صفا ويدعُ ما كدر... ومن وفائه أن لم يقطع مراسلتنا ولا مراسلة الأستاذ الإمام[٦] في إبّان ثقل وطأة الاستبداد الحميدي؛ إذ كانت مراسلتنا تُعدّ من الجنايات السياسية التي تعاقب الحكومة صاحبها أشد العقاب»[٧].

> **لِيعلم هذا الجيل الذي نقوم على تربيته أنَّ في هذه الدنيا بقايا من الوفاء والمحبة، تتماسك بها أجزاء هذا الكون الإنساني، و أنَّه لولا هذه البقايا لانحدر الإنسان إلى حيوانية عارمة، كالتي بَدَت آثارها في الجماعات التي جفّت نفوسها من الوفاء والمحبة**
> **محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله**

وبكأنّ هذا الوفاء للشيوخ دَينٌ ووفاءٌ؛ فقد جاء في ترجمة الشيخ حامد التقيّ النصُّ على وفائه الشديد لشيخه القاسمي[٨]، وحكى الشيخ عاصم البيطار عن والده الشيخ بهجة: «لم يكن يذكره في بيته أو على ملأ من قومه إلا بقوله: شيخنا علّامة الشام، أو شيخنا القاسمي...، وكنت أشعر بسعادة والدي رحمه الله وهو يعمل فيما طُبع من كتب شيخه، وكم كنتُ أراه يبكي وهو يعمل، ويبكي وهو يذكر أستاذه القاسمي»[٩]؛ فما أعظمه من وفاء!

وفي الوفاء مع مُصلحي الشام يقول العلّامة محمد البشير الإبراهيمي بعد رسالةٍ من الشيخ بهجة البيطار: «لِيعلمَ هذا الجيل الذي نقوم على تربيته

---

(١) الذكريات (١/١٧٩).

(٢) القاسمي، للعجمي، ص(٥٢). وذكر ظافر عن أبيه العلامة القاسمي في أول درس له في المسجد مكان والده رحمه الله سَرْدَه لشيوخه في الكتاب الذي يدرّسه على طريقة الشيوخ والمعلّمين وقتذاك. يُنظر: القاسمي، لظافر، ص(٣٨).

(٣) من عيون الإجازات إجازة الشيخ عبد الرزاق البيطار لصاحبه الشيخ جمال الدين القاسمي، ينظر: عبد الرزاق البيطار، للعجمي، ص(٣٢).

(٤) جمال الدين القاسمي، للإستانبولي، ص(٢٨)، وثمّة موقف آخر لمخالفة القاسمي شيخه العطار ورجوع الشيخ لرأي القاسمي في المصدر ذاته، ص(٨٠).

(٥) جمال الدين القاسمي، لظافر، ص(٢٨).

(٦) يعني: الأستاذ محمد عبده.

(٧) جمال الدين القاسمي، للإستانبولي، ص(٢٢).

(٨) القاسمي، للعجمي، ص(٣٢).

(٩) القاسمي، نزار أباظة، ص(٢١٥). ويذكر الطنطاوي بعض قصص وفائه لشيوخه في: رجال من التاريخ، ص(٥٤٠-٥٤١).

أنَّ في هذه الدنيا بقايا من الوفاء والمحبة، تتماسك بها أجزاء هذا الكون الإنساني، وأنَّه لولا هذه البقايا لانحدر الإنسان إلى حيوانية عارمة، كالتي بَدَت آثارها في الجماعات التي جفّت نفوسها من الوفاء والمحبة...، وإنَّ منبعَ الوفاء الشرقُ، وإن زارعَه وساقيَه والقيِّمَ عليه هو الإسلامُ، وعسى أنْ تحمل البصائر هذه الذكريات إلى الإخوان في دمشق فنتنادم على البُعد ونلتقي على الذكريات ونتناشد»[١].

## طلاب تقدّموا شيوخهم.. والشيوخ يقرّون بتفوّقهم:

ولهذه الصلة الصحّية بين المُصلحين وشيوخهم، نجد شيوخهم الكبار يحضُرون دروسهم، فذكرَ القاسمي شيخَه عبد الرحمن المصري الذي قرأ عليه القرآن أول عمره، وقال: «وبعدما كبرتُ حضر كثيرًا من مجالس دروسي الفقهية والتفسيرية، وكان رُبما أراد تقبيل يدي، فأُجلّ ذلك لمشيخته»[٢]. بل يعترف له شيخه الخاني بالتقدُّم عليه[٣]، ويعترف الشيخ أبو الخير الخطيب أمام الوالي العثماني -وأمام الزعماء تُعرض الدعاوى وتزداد!- فيقول عن الشيخ بدر الدين الحسني: «إن الشيخ بدر الدين هو تلميذي؛ ولكنه فاق عليَّ كثيرًا في العلم»[٤].

## ثانياً: مع الطلاب:

### إجلال الطلاب ومحبتهم:

لا يُتصوَّر ممن كانوا مع شيوخهم على نحو ما سبق في الوفاء والإجلال أن يكونوا أقلّ من ذلك مع طلابهم؛ وهم الروّاد السابقون في الحثّ على التعلُّم والتميّز فيه، وأنه ليس للتبرّك[٥]، ومما يجلّي الأبوّةَ التي ذكرها القاسمي مع الطلاب والنهجَ الإصلاحيّ مع ما سبق: حرية البحث والرأي، فجاء في كلام طلاب القاسمي عنه: «وكان رحمه الله مع طلابه كالصديق مع صديقه، يعطيهم الحرية في البحث، قال تلميذه: باحثتُه مرةً وخالفتُه في رأيه، فأبطلَ رأيي بالأدلة، فلم أقتنع، وقلت له: لم أقتنع، فقال لي: أنت حرّ: لك رأيك ولي رأيي»[٦]، وقال الأستاذ محمد المبارك عن الشيخ تاج الدين الحسني نحو ذلك[٧]. وقال الشيخ حامد عن القاسمي أيضًا: «وكان من ديدنه رحمه الله تقوية شخصية طلابه ورفع مكانتهم، فلم يكن يدعوهم بالتلامذة، بل بالأصحاب أسوةً برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا منتهى الأدب وحُسن التربية...، ومِن عظيم توجهاته وإخلاصه أنه -خلافًا لكثير من الشيوخ- كان يأمر طلابه بالذهاب إلى بعض المتخصصين ببعض العلوم الشرعية التي لم يتخصَّص بها، بل يأخذُهم بيده إليهم ويُوصيهم بتعليمهم؛ فأين هذا الصنيع من بعض الشيوخ الذين يُعاقبون طلابهم إذا بلغهم أنَّهم يقصدون غيرهم من العلماء؟!»[٨]. ومن ذلك ما حكاه الشيخ عبد الرزاق البيطار عن شيخه الملّا أبي بكر الكردي: «وكان كثيرًا ما يُذاكرني -مع صغر سنّي- في المسائل العلمية والنوادر الأدبية»؛ وبسبب هذه المرونة والحيوية كان المُصلحون قدوةً لطلابهم في المراجعة والتصحيح، فقال الشيخ بهجة عن شيخه القاسمي: «إن مما يقضي بالعجب من أمر أستاذنا المؤلف رحمه الله هو كونه خلّف زهاء مئة مصنَّف أو أكثر...، وندرَ جدًا أن ترى كتابًا في خزانته الواسعة مخطوطًا كان أو مطبوعًا خاليًا من التعليقات الكثيرة، والتصحيح على الأصول الخطية الصحيحة..؛ فإنَّ أستاذنا رحمه الله كان في تجدُّد مستمر»[٩].

> **كان أعلام المدرسة الإصلاحية يبنون طلابهم مُصلحين من بَعدهم؛ فكانوا كما أحبّوا منهم**

### تربية.. وتعليم:

أعلام المدرسة الإصلاحية كانوا يبنون طلابهم مُصلحين من بَعدهم؛ فكانوا كما أحبّوا منهم، حتى

(١) مُجمعيّ افتقدناه محمد بهجة البيطار، عدنان الخطيب، ص(١٦).
(٢) القاسمي، لظافر، ص(٢٤)، والقاسمي، لأباظة، ص(٢١٧).
(٣) القاسمي، للإستانبولي، ص(٣٧).
(٤) محدّث الشام، للرشيد، ص(٨٢).
(٥) يُراجع مقال: "من ملامح المدرسة الإصلاحية في الشام" العدد الأول من مجلة رواء.
(٦) القاسمي، للإستانبولي، ص(٨٨)، والمراد بتلميذه هنا الشيخ حامد التقي الذي سرد الإستانبولي أكثر كلامه عن القاسمي في كتابه عنه. وينظر: القاسمي للعجمي: ص(٢٧١)، وص(٢٧٣).
(٧) محدّث الشام، للرشيد، ص(١٤٤). وَ: رجال من التاريخ، ص(٤٨٨).
(٨) القاسمي، للإستانبولي، ص(٩٠).
(٩) قواعد التحديث، مقدمة الشيخ بهجة البيطار، ص(٢٢).



تأثير المدرسة الإصلاحية الشامية تجاوز حدود الشام إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي

قال العلّامة الإبراهيمي في الشيخ بهجة البيطار: «وله في الإصلاح سلفُ صدقٍ؛ حقّقوه علمًا وطبّقوه عملاً، يعتمد في تحصيله وتربيته على طودَين شامخَين من أطواد العلم والعمل، أحدهما: الإمام عبد الرزاق البيطار، والثاني: الإمام المحدّث جمال الدين القاسمي؛ عنهما أخذ، وفي كنفهما نشأ، وعلى يدهما تخرّج، فجاء عالمًا من ذلك الطراز الذي نقرؤه في التراجم ولا نجده فيمن تقع عليه العين من هؤلاء العلماء الذين يقرؤون ويحفظون وينقلون ولكنهم لا يفقهون»[1]. لذا لم يقبلوا من الطالب أن يُسرع في سؤال شيخه عن المسألة قبل البحث فيها[2]، وارتفعوا بهممهم وحذّروهم اللهو والعبث[3]. فكانوا حريصين على تربية طلابهم في أنفسهم حرصَهم على تعليمهم، فقال أحد الطلاب عن شيخه القاسمي: «وكان رحمه الله يستصحبني في حضره وسفره للإشراف على تربيتي...، وهكذا كان رحمه الله يتولى مراقبة طلابه وحسن توجيههم، فلا يكتفي بتعليمهم العلوم كما هي حال كثير من أساتذة اليوم دون الإشراف على تربيتهم؛ لِمَا للعلم من خطر دون أدب»[4]!

وكانوا يربّونهم على قَبول الناس وحُسن دعوتهم والرفق بهم[5].

> **تعلّموا العلم، وتعلّموا صناعة تعيشون بها؛ حتى لا تقفوا على أبواب السلطان تستجدون الوظائف والجرايات**
> **طاهر الجزائري رحمه الله**

## تربية الطلاب على الإباء وعزّة النفس:

ومما تكاثر عن أئمة المدرسة الإصلاحية في الشام مع طلابهم في التربية تأكيدهم عليهم عزّةَ النفس والإباءَ وعدمَ الخنوع، فجاء عن الشيخ القاسمي قُبيل وفاته لأحد تلامذته: «إنني ذاهب إلى ربّي، وأريد أن أحمّلك شهادةً قبل أن أُفارق الحياة لتشهد بها لي أمام الله يوم القيامة؛ وهي أنّني منذ اشتغالي بالعلم إلى هذه اللحظة من الحياة ما أكلتُ بديني، وإنّما من كسب يدي بالتجارة»، وأكملَ تلميذُه: «وكان القاسمي يُريد من روايته لنا بهذه القصة أن يغرسَ في نفوس تلاميذه حبّ الاعتماد على النفس، وعدم الركون إلى السلطة

(١) مجمعيّ افتقدناه، للخطيب ص(١١).
(٢) القاسمي، للإستانبولي، ص(٩٢).
(٣) ولذلك صور عديدة في سير أعلام المدرسة الإصلاحية، يُنظر منها في: القاسمي، للإستانبولي: ص(٨٨)، ومحدّث الشام، للرشيد ص(١٠٠).
(٤) القاسمي، للإستانبولي، ص(٨٩).
(٥) المرجع السابق ص(١٨-١٩)، وص(٤٧).

ومسايرتها على ضلالها رغبةً وعبدًا بالراتب»[1]، وفي موضع آخر ذكر أنه كان يعلّمهم الاعتماد على النفس والبعد عن قبول الصدقات ويأمرهم بالسعي والعمل، «فكان إذا أراد أن يتصدَّق على بعض هؤلاء التلاميذ يأمرهم أن ينسخوا له بعض مسودَّاته ثم يُكرمهم باسم الأجرة لا باسم الصدقة»[2]، فلا عجب إن جاء في ترجمة تلميذه الشيخ توفيق البزرة: «كان يكتسب بعمل يده؛ فهو يعمل السكاكر ويبيعها، فلا يتعيّش بوظيفة؛ إنَّه يعيش حرًّا ويعمل حرًّا»[3]، وفي ترجمة تلميذه الشيخ رشيد شميس أنَّه «كان لا يأكل إلا من كسب يده في متجره بسوق الخيّاطين»[4]. ومن كلام الشيخ طاهر الجزائري: «تعلّموا العلم، وتعلّموا صناعة تعيشون بها؛ حتى لا تقفوا على أبواب السلطان تستجدون الوظائف والجرايات. وعلى كل طالب علم إسلامي أنْ يتعلّم صناعةً أو تجارةً أو نحو ذلك من أسباب المعاش؛ ليستغني عن الناس، وعن تكفّف العظماء ومدّ اليد إلى الأوقاف»[5].

> تجاوزت صِلاتُ روّاد المدرسة الإصلاحية الصلاتِ العلمية البحتة، فكانت مع مختلف المتنوّرين ورموز الحركة الوطنية في الشام وقتها

## ثالثاً: مع الأصحاب والمعاصرين:

### رَحِم الإصلاح مع رَحِم العلم:

أكثرُ ما يُشتهر عند الحديث عن المتعاصرين النُّفرة أو الطعن، حتى قيل قديماً: «المعاصرة حرمان» و«كلام الأقران يُطوى ولا يُروى»؛ لشدَّة ما جاء من العلماء الأقران أو المتعاصرين، ولا يبعد هذا كثيرًا عمّا نراه في ساحتنا العلمية مع الأسى والأسف، ولكنّ النظر في سِيَر أئمة المدرسة الإصلاحية في الشام يخرج بنا إلى خارطة من الصلات العلمية المتميزة جمعتْهم فيما بينهم برحِم العلم ثم الإصلاح؛ فلم يكن العلم وحدَه رابط الصلات المميزة، بل كان الشرط الآخر هو «الإصلاح»، فلا عجب أن تفتر الصلات وتضعف الروابط مع علماء معاصرين لهم حازوا العلم وأبطؤوا عنهم في ركب الإصلاح[6]. فالدعوة الإصلاحية التي انطلق بها البيطار والقاسمي وطاهر الجزائري جمعت إليهم كوكبةَ المُصلحين آنذاك في الشام، فكان مجلسهم معروفًا بنهجه الإصلاحي مميزًا من مجالس الشام[7]. قال محمود العطّار: «كنتُ فتىً في حدود الخامسة عشرة، وأنا أسمع بشهرة الشيخ جمال الدين وتأثير دروسه في الطبقة العليا من مثقفي أبناء عصره، وكان يُلقي دروسه الإصلاحية في بيته وفي جامع السنانية.. فيمَّمت وجهي شطر المسجد بعد صلاة العشاء، فإذا بي أراه غاصًّا بأعلام البلاد الشامية وقادة الفكر والإصلاح من المستمعين، ولم يكُ بالمسجد موطئ قدم لإنسان»[8]؛ فتجاوزت صِلاتُ روّاد المدرسة الإصلاحية الصلاتِ العلمية البحتة، فكانت مع مختلف المتنوّرين ورموز الحركة الوطنية في الشام وقتها، يقول ظافر القاسمي تعليقًا على مجلس والده: «إنّ التفافَ فئةٍ من الجيل المثقف تعلَّمَتِ الطبَّ أو القانون أو الهندسة أو غير ذلك من العلوم في أرقى المعاهد المعروفة في ذلك العصر...، واستئناسها بمجالس الشيخ وحرصها عليها ودُؤوبها على متابعتها أمرٌ يستدعي كثيرًا من الوقوف والتأمُّل؛ فما كان لهذه الفئة من الشباب أن تأنَس بغير مجالسها ومواضيعها وما أَلِفت من بحوث.. لولا أن هناك حسًّا عميقًا لدى هذه الفئة بفضائل القاسمي ومزاياه وإمكان الانتفاع منها»[9]، ويلفت رشيد رضا إلى أن التفاف هؤلاء حول القاسمي أفادَه في نفسه بتعزيز ميوله الإصلاحية[10]. مع أنّها صلاتٌ دفعَ الإصلاحيون الأئمة ثمنَها من أنفسهم وحريتهم كما سبقت الإشارة[11].

---

(١) القاسمي، للإستانبولي، ص(٨٦).
(٢) المرجع السابق، ص(٨٨).
(٣) القاسمي، للعجمي، ص(٢٨١).
(٤) المرجع السابق، ص(٢٩٠).
(٥) مقالات الدكتور مازن المبارك، (٢/٤٩٩).
(٦) القاسمي، لأباظة، ص(٢٠٣)، والقاسمي، للعجمي، ص(٢٦٨).
(٧) مازن المبارك، (٢/٣٥٥)، والحياة الأدبية في دمشق في: فكر ومباحث، للشيخ الطنطاوي، ص(٢٠٢).
(٨) القاسمي، للعجمي، ص(١٨٧).
(٩) القاسمي، لظافر، ص(٩٣).
(١٠) القاسمي، لأباظة، ص(٢٠٣).
(١١) يُراجع مقال: «من ملامح المدرسة الإصلاحية في الشام» العدد الأول من مجلة رواء.

## مُعاصرة سامية:

وإذا أردنا توصيف علاقتهم فيما بينهم فهي: إما لتدارُس العلوم بينهم كما كان في الحلقة التي أدّت إلى حادثة المجتهدين[١]، وإما لتبادل المعارف بين مختلفي التخصصات[٢]، بل يطلبون الإجازة من بعضهم فيما يُتقنون ويُسندون كما مرّ في إجازة البيطار للقاسمي، أو ما يكون بينهم من تقاريظ كتب بعضهم ومراجعتها وتقديمها[٣]. وعلى قرب مجالسهم لم نعدم نماذج من رسائل الإخوان فيما بينهم من أرق المراسلات وألطفها[٤]، ولعل أرقاها ما جاء في ترجمة البيطار لصاحبه القاسمي[٥]. وليس أقل منها ما كان من صلات للشيخ بهجة البيطار بمعاصريه من العلماء[٦]، دون أن يكتم هؤلاء الأعلام ما يكون من خلاف بينهم لا يفسد للودّ قضية[٧]؛ إذ ضربوا أروع الأمثلة في التواضع وحُسن الخُلق فيما بينهم[٨].

## مع المُصلحين في العالم الإسلامي:

ومما امتازت به هذه المدرسة أنّها خَرَجت عن دائرة الشام نحو العالم الإسلامي شرقه وغربه، فكانت لهم مراسلات وزيارات وإجازات كسرت الحدود – التي نعرفها اليوم – مع رموز الإصلاح الإسلامي في شبكةٍ من العلاقات يحسن أن تكون محلّ درس مُفرد[٩]؛ فالقاسمي وعبد الرزاق البيطار كانا على صلة ومراسلة مع رموز الإصلاح في مصر كالإمام محمد عبده، ورشيد رضا صاحب «المنار»، وأحمد تيمور باشا، وغيرهم[١٠]، وكانت بينهم مراسلاتٌ كثيرةٌ عالية، ومثل ذلك مع الأمير شكيب أرسلان[١١]، ومع علماء الإصلاح في العراق[١٢]، وفي بلاد المغرب العربي[١٣]؛ يتحاورون معهم في أخبار العالم الإسلامي، وما يجدّ في طباعة الكتب والمخطوطات؛ فهم تجاوزوا حدود الشام إلى العالمية؛ حتى كانت لهم من بعض الزعماء والولاة رسائل ودعوات[١٤]، ومن مستشرقين يسألونهم في بعض المسائل[١٥].

وقد مرّ كلام العلّامة الإبراهيمي في البيطار الجدّ والحفيد والقاسمي، ويقول الأمير شكيب أرسلان عن عبد الرزاق البيطار والقاسمي: «كان هذان الجِهبِذان فرقَدَين في سماء الشام، يتشابهان كثيرًا في سجاحة الخُلق ورجاحة العقل ونَبَالة القصد وغَزَارة العلم..، ولم يكن في وقتهما أعلى منهما فكرًا وأبعدُ نظرًا وأثقبُ ذهنًا»[١٦].

> **كان هذان الجِهبِذان (عبد الرزاق البيطاروجمال الدين القاسمي) فرقَدَين في سماء الشام، يتشابهان كثيرًا في سجاحة الخُلق ورجاحة العقل ونَبَالة القصد وغَزَارة العلم... ولم يكن في وقتهما أعلى منهما فكرًا و أبعدُ نظرًا و أثقبُ ذهنًا**
>
> **الأمير شكيب أرسلان**

## خاتمة:

وبعدُ: فهذه ملامحُ المدرسة الإصلاحية في الشام من حيث الصلات العلمية، يكفي النظر فيها لإدراك مسيس احتياجنا إلى ما كان عليه أئمتنا الأعلام مع شيوخهم، ومع طلابهم، ومع المعاصرين لهم، من حُسن الخُلق والوفاء، ومن الجدّ والاجتهاد في دعوة الإصلاح، التي تجمع أهل العلم وشُداة الحرية والصلاح الصادقين، وإن كانوا من المُخالفين؛ ليمضوا بالناس نحو الخلاص والنجاة.

---

(١) ظافر، ص(٤٣)؛ وملخصها: أن بعض الشيوخ الجامدين غاظهم اجتماع القاسمي والمصلحين وتدارُسهم العلوم، فأوقعوا بهم عند الوالي العثماني بتهمة سياسية، فأنقذهم الله من المحنة وأعلى شأنهم عند أهل الشام الذين هبّوا لنصرتهم والمطالبة بالإفراج عنهم.

(٢) القاسمي، للإستانبولي، ص(١٩).

(٣) عبد الرزاق البيطار، ص(١٠١).

(٤) المصدر السابق، ص(٤٢).

(٥) حلية البشر، (٤٣٥/١).

(٦) الشهري، ص(٧٣).

(٧) الذكريات، (٣٦١/٢).

(٨) رجال من التاريخ، ص(٤٨٢).

(٩) معتز الخطيب، الإصلاح الإسلامي في سوريا في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، بحث في معهد العالم للدراسات، ٢٠١٧م.

(١٠) القاسمي، لأباظة، ص(١٩٣).

(١١) مقدمة الأمير شكيب لكتاب القاسمي قواعد التحديث مثلًا.

(١٢) كتاب الرسائل المتبادلة بين جمال الدين القاسمي ومحمود شكري الآلوسي.

(١٣) القاسمي، لأباظة، ص(٢٠٣)، والقاسمي، للعجمي، ص(٢٦٨).

(١٤) حلية البشر (١٤٣٢/٣)، والشهري، ص (٢٤١)، ومحدّث الشام، للرشيد ص(٢٩-٣٠).

(١٥) القاسمي، لأباظة، ص(١٩٧).

(١٦) عبد الرزاق البيطار، ص(٣٥).

# أهل السنة والجماعة .. المصطلح والانتماء

د. عماد الدين خيتي[1]

«أهل السنة والجماعة» مصطلح اضطرب فيه الخائضون، واختلف فيه المتكلمون، ابتداء من أصل هذا المصطلح، وإطلاقه، وسعته أو ضيقه، وفي هذا المقال بيان لأهل معالمه، والتنبيه على الأخطاء في التعامل معه.

«أهل السنة والجماعة» مصطلحٌ عرفهُ أهل العلم منذ القرون الثلاثة المفضّلة، وفي يومنا هذا تزايد الاهتمام به؛ فعُقدت له المؤتمرات والندوات، وتناولته مراكز الأبحاث والدراسات، وتدخَّلتْ فيه بعض الحكومات لتصفية الحسابات، وتغذية الخلافات، وزرع الفتنة بين المسلمين، بعيدًا عن الأسس العلمية المنضبطة، ومن ذلك [مؤتمر غروزني ٢٠١٦] أنموذجًا، وانعكست نتائج هذا الحراك على الوسط السُّني بطبيعة الحال.

وقد انقسم الناس في هذا المصطلح إلى متشدّدٍ يُخرج منه كلَّ مَن خالفه، ومُتساهلٍ يُدخل فيه كلَّ من انتسب إلى أهل السنة مهما خالف أصولَهم، وانشغل البعض بالخلافات والفروق «المدرسية» ممَّا أضاع عليهم حقيقة الانتماء لدائرة أهل السنة الواسعة المشتركة، واختلطت عليه الأوليات، فضيّع حقيقة الانتماء لأهل السنة بمجموعهم.

وجميعُ ذلك يؤكّد الحاجة إلى مزيد تأكيدٍ وتوضيحٍ وضبطٍ لدائرة الانتماء لأهل السنة بطريقةٍ علمية وهادئة، وسيكون ذلك من خلال المسائل التالية:

## المسألة الأولى: تأصيل وتحرير مصطلح أهل السنة والجماعة:

أهل السنة والجماعة هم عامَّةُ الأمة الإسلامية، وسوادُها الأعظم، ليسوا حزبًا

(١) باحث ومتخصص في الدراسات الإسلامية، نائب رئيس مجلس الإفتاء في المجلس الإسلامي السوري.

من الأحزاب، ولا فرقةً من الفرق، ولا طائفة من الطوائف؛ فهم أهل القرون الثلاثة المفضَّلة من الصحابة والتابعين وتابعيهم، ومَن سار على نهجهم من العلماء والأئمة المتبوعين، تمسَّكوا بالحق حين تفرَّقت بالناس السبل، وثبتوا على المنهج النبوي حين حادت عنه سائر الفرق.

> **أهل السنة الذين ليس لهم لقبٌ يُعرفون به، لا جهمي، ولا قدَري، ولا رافضي**
> **الإمام مالك رحمه الله**

للإسلام ينتسبون، وبمحمد صلى الله عليه وسلم يقتدون، حفظ الله بهم الدين، وعلى أيديهم فُتحت البلدان، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وحُكمت الأرض بشرع الله، وبُسط العلم وانتشر.

سُئل الإمام مالك عن أهل السنة فقال: «أهل السنة الذين ليس لهم لقبٌ يُعرفون به، لا جهمي، ولا قدَري، ولا رافضي»[1].

وسئل عن السنة مرة أخرى فقال: «هي ما لا اسم له غير السنة»، وتلا: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣][2].

## تحرير المصطلح:

من المتفق عليه عند الباحثين أن مصطلح «أهل السنة والجماعة» يتكون من جزأين، وقد ورد كلاهما في النصوص الشرعية:

أهل السنة: والمقصود بها ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الهَدْي والاعتقاد والعلم والعمل، أخذًا من مثل قوله صلى الله عليه وسلم: (فعَلَيكُم بِسُنَّتي وسنَّة الخُلفاء المَهديين الراشدين)[3].

الجماعة: المقصود بها جماعة المسلمين، فقد سُئل صلى الله عليه وسلم عن الناجين من الافتراق والابتداع فقال: (هم الجماعة)[4]، وقال صلى الله عليه وسلم: (وعليكُم بالجماعةِ، والعامَّة، والمسجد)[5].

ثم كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم وتابعوهم أوَّل من استخدم هذا المصطلح، تارة مفردًا وتارة مجموعًا: فورد في لفظ السنة:

قول أُبيّ بن كعب رضي الله عنه: «عليكم بالسَّبيل والسُّنة»[6].

وقول الحسن البصري رحمه الله: «يا أهل السُّنة ترفَّقوا رحمكم الله»[7].

وقول ابن سيرين رحمه الله: «لم يكونوا يسألونَ عن الإسناد، فلمَّا وقعت الفتنة، قالوا: سَمُّوا لنا رجالكم، فيُنظر إلى أهل السنَّة فيُؤخذ حديثُهم، ويُنظر إلى أهلِ البِدعِ فلا يُؤخذ حديثُهم»[8].

وعن زكريا بن يحيى قال: سمعت أبا بكر بن عياش[9]، وقال له رجل: يا أبا بكر، مَنْ السني؟ فقال: «السنيُّ الذي إذا ذُكرت الأهواء لم يغضب (وفي رواية: لم يتعصَّب) لشيء منها»[10].

وورد في لفظ الجماعة:

قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا إسلامَ إلا بجماعة»[11].

وقول ابن مسعود رضي الله عنه: «يا أيها الناس، عليكم بالطَّاعة والجماعة، فإنَّها حبل الله الذي أمر به، وما تكرهون في الجماعة خيرٌ مما تُحبون في الفُرقة»[12].

---

(١) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، لابن عبد البر (٣٥/١).
(٢) الاعتصام، للشاطبي (٧٧/١).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وأحمد (١٧١٤٤).
(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٦٣).
(٥) أخرجه أحمد (٢٢٠٢٩)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (١٣٢).
(٦) أخرجه أبو داود في الزهد (١٨٩)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١٠)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٣٥٩/١).
(٧) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣٢/٤).
(٨) أخرجه مسلم (١٥/١).
(٩) هو شعبة بن عيَّاش الأسديّ، أحد رواة القُرَّاء السبعة، إمام عَلَمٌ كبير، مُقرئ عالم حجَّة، من كبار أئمة السنة وفقهائها، ينظر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٤٩٥/٨).
(١٠) ذكره الشاطبي في الاعتصام (١١٤/١)، والآجري في الشريعة (٢٥٥٠/٥).
(١١) أخرجه الدارمي في سننه (١٣٥/١)، وقال المحقق د.مرزوق الزهراني: «فيه صفوان: سكت عنه البخاري (التاريخ ٣٠٩/٤) وفيه انقطاع بين بقية وتميم، وعبد الرحمن مقبول، وانظر: القطوف رقم (١٦٧/ ٢٥٨)».
(١٢) أخرجه اللالكائي في شرح أصول أهل السنة (١٣/٦)، والآجري في الشريعة (٢٩٨/١)، واللفظ له.

وقال الأوزاعيُّ رحمه الله: «خمسٌ كان عليه أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم: لزومُ الجماعة، واتباعُ السنة، وعِمارةُ المسجد، وتلاوةُ القرآن، وجهادٌ في سبيل الله»[1].

**كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم وتابعوهم أوّل من استخدم هذا المصطلح، تارة مفردًا وتارة مجموعًا**

وجاء في اجتماع لفظ السنة مع الجماعة:

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]: «حين تَبيَضُّ وُجوه أهلِ السنة والجماعة، وتَسوَد وجوه أهل البدعة والفُرقة»[2].

وعن قتادة، وسعيد بن جبير رحمهم الله في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ قالوا: «لزومُ السُّنة والجماعة»[3].

ومما تقدم يمكن استنتاج أن السلف رحمهم الله قد استخدموا هذا المصطلح لأمرين:

١- بيان من تُقبل روايته للأحاديث، ويؤخذ العلم الشرعي عنه؛ لكونه ثابتًا على الدين، لم ينحرف ولم يبتدع.

٢- توضيح معالم الدين الصحيح؛ تمييزًا له عن الانحرافات التي شذَّ بها بعض الأفراد، ثم تطوَّرت إلى فرق.

ويلحظ أن اهتمامهم بهذا المصطلح زاد بعد ظهور بوادر الانحراف في الأمة؛ لذلك فقد ورد تعريف السنة والجماعة بعدة تعريفات بحسب الافتراق الحاصل، والبدعة المردود عليها، مع أن مرجعها واحد:

ففي تعظيم الشرع والانقياد له:

- قال سعيد بن المسيب لرجلٍ صلّى بعد طلوع الفجر أكثر من ركعتين، يُكثر فيهما الركوع والسجود فنهاه، فقال: يا أبا محمد! يعذبني الله على الصلاة؟! فقال: «لا، ولكن يعذِّبك على خلاف السنة»[4].

وفي عدم تفريق جماعة المسلمين والخروج عنها:

- قال حذيفة رضي الله عنه: «من فارق الجماعة شبرًا، فارق الإسلام»[5].

- عن علي رضي الله عنه قال: «الأئمةُ من قريش، ومن فارق الجماعة شبرًا، فقد نزع رَبَقة الإسلام من عنقه»[6].

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] قال: «الجماعة»[7].

ومجمل ذلك يوضحه قولُ الألوسي رحمه الله: «السنة في الأصل تقع على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما سَنَّهُ أو أَمَرَ به من أصول الدين وفروعه، حتى الهَدْيَ والسَّمت، ثم خُصّت في بعض الإطلاقات بما كان عليه أهل السنة من إثبات الأسماء والصفات، خلافًا للجهمية المعطلة النُّفاة، وخُصّت بإثبات القدَر ونفي الجبر خلافًا للقدرية النُّفاة، وللقدرية الجبرية العصاة، وتطلق أيضًا على ما كان عليه السلف الصالح في مسائل الإمامة والتَّفضيل، والكفِّ عما شَجَر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا من إطلاق الاسم على بعض مسمَّياته؛ لأنَّهم يُريدون بمثل هذا الإطلاق التنبيه على أنَّ المسمّى ركن أعظم وشرط أكبر، كقوله: «الحج عرفة»، أو لأنه الوصف الفارق بينهم وبين غيرهم»[8].

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠]: «وهذه الأمّة أيضًا اختلفوا فيما بينهم على نِحَلٍ كلُّها ضلالةٌ إلا واحدة، وهم أهل السنة والجماعة المتمسّكون بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وبما كان عليه الصدر الأول من

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٦٧١)، وشرح السنة للبغوي (١/٢٠٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/٧٩).
(٣) ينظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة، للالكائي (١/٧٨).
(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤١٣١)، وعبد الرزاق في المصنف (٤٧٥٥).
(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٧١٤٤).
(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٧١٥٥).
(٧) تفسير الطبري (٥/٦٤٤).
(٨) غاية الأماني (١/٥٥٠).

الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه»[1].

ومن ذلك يتبيَّن:

١- أنَّ مصطلح أهل السنة مصطلحٌ جاءت به النصوص الشرعية، ثم قررَّه الصحابة والتابعون ومن بعدهم من أهل العلم، وليس بمصطلح حادث، أو ذا نشأة سياسية كما يزعم البعض[2].

٢- اهتمام السلف بتوضيح هذا المصطلح ومعالمه في وقت مبكر ابتداءً منهم، ثم وُجِّه للرد على المنحرفين.

## المسألة الثانية: ما الذي يشتمل عليه منهج أهل السنة من أمور الدين؟

منهج أهل السنة والجماعة هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وبيَّنه رسوله صلى الله عليه وسلم، وسار عليه السلف الصالح من أهل القرون المفضلة الأولى، والأئمة المتَّبعون، وهو بذلك يشمل مسائل الدين الكبرى في العقيدة، والفقه، والسلوك، وما يحتاجه الناس لتصحَّ به عقائدهم، وعباداتهم، ومعاملاتهم، وما تقوم عليه حياتهم الأسرية، والدنيوية، وما يَعمُرون به دُولهم وبلدانهم، وتفصيل ذلك والاستدلال عليه في هذا المقام طويل.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «صفة المؤمن من أهل السنة والجماعة: من يشهد أن لا إله إلا اللّٰه وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وأقرَّ بجميع ما أتت به الأنبياء والرسل، وعقد قلبَه على ما أظهر من لسانه، ولم يشكَّ في إيمانه... ولم يُنزل أحدًا من أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجنةَ بالإحسان، ولا النار بالذنب اكتسبه، حتى يكون اللّٰهُ تعالى هو الذي يُنزل خلقه حيث يشاء، وعرفَ حقَّ السلف الذين اختارهم الله عزَّ وجلَّ لصحبة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم... وصلاة العيدين وعرفات والجمعة والجماعات مع كل برٍّ وفاجر... هذا ما اجتمع عليه العلماء في الآفاق»[3].

فالسنة والجماعة بهذا التعريف العام ليست




مدرسةً بعينها، أو اختياراتٍ عقديةً أو فقهيةً محددة، بل هي دينُ الإسلام، ويشمل ذلك أصول الدين ومسائله العظام وكلياته الكبرى، وأهل السنة والجماعة هم عموم الأمة المتمايزة عن الفرق الضالة.

من هو السني؟

فالسني هو المسلم، لا يُعرف بهذا الإطلاق إلا هو، ومن عداه فإنْ نُسب إلى الإسلام فإنَّه يُنسب معرَّفًا ببدعته وانتمائه.

قال ابن حزم: «وأهلُ السنة الذين نذكرهم أهلُ الحقّ، ومن عداهم فأهلُ البدعة»، ثم قال في أهل السنة: «فإنَّهم الصحابة رضي الله عنهم، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة الله عليهم، ثم أصحاب الحديث، ومن اتبعهم من الفقهاء، جيلًا فجيلًا إلى يومنا هذ، أو من اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم» [4].

> **فالسنة والجماعة بهذا التعريف العام ليست مدرسةً بعينها، أو اختياراتٍ عقديةً أو فقهيةً محددة، بل هي دينُ الإسلام، ويشمل ذلك أصول الدين ومسائله العظام وكلياته الكبرى، وأهل السنة والجماعة هم عموم الأمة المتمايزة عن الفرق الضالة.**

(١) تفسير ابن كثير (٣١٧/٦).
(٢) هناك من يُرجع نشأة المذاهب والبدع إلى أسباب سياسية فحسب، وهذا خطأ؛ فمن المذاهب والبدع ما تكون نشأته معرفية محضة، ومنها ما تجتمع فيه الخلفية المعرفية والسياسية، ومنها ما تكون نشأته سياسية، ونحو ذلك، كما ينبغي التفريق بين نشأة البدعة وبين استغلالها السياسي بعد ذلك. والخلاصة أن البعد السياسي لنشأة بعض البدع ليس مطردًا فيها كلها.
(٣) طبقات الحنابلة (٢٩٤/١) باختصار.
(٤) الفصل في الملل والنِّحل (٩٠/٢).

ما يعدُّ خارجًا عن مفهوم عموم أهل السنة والجماعة:

من خلال ما سبق تتبيَّن مناهج الفرق الأخرى ومعالمها:

- فاتّباع السنة: يخرج به من أنكر السنة، أو لم يأخذ بها، أو لم يُسلم للنصوص الشرعية، أو فارق في معلومٍ من الدين بالضرورة إنكارًا أو انحرافًا، أو خرج عن طريقة الصحابة رضي الله عنهم في العلم والعمل، كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث الافتراق المشهور: (ما أنا عليه وأصحابي)[1].

قال الشاطبي في مصطلح أهل السنة: «أهلُ السُّنة: إنما يُطلق على نَاصريها، وعلى من استنبَطَ على وُفقِها، والحامين لِذِمارِها»[2].

- والتزام جماعة المسلمين يُخالفه من خرج عن جماعة المسلمين وخالفها في أمرٍ من أمور الدين الكبرى، أو شقَّ عصاها اعتقادًا وعملاً، أو عادى جمهورَها، أو تحزَّب على طائفته دونَها وعقد الولاء والبراء عليها.

وبالرجوع إلى ما قرَّره أهل العلم نجد أنَّ رؤوس الفرق (الخوارج، والروافض، والقدرية، والمرجئة) قد خالفوا في هذين الأصلين الكبيرين، وتبعهم على ذلك من تفرع عنهم كالمعتزلة ومن هو أشد منهم انحرافًا كالباطنية، ومن لحق بهم من المعاصرين من ذوي الأهواء.

قال الشاطبي: «أصولُ البدع أربعة، وسائر الثنتين والسبعين فرقة عن هؤلاء تفرقوا، وهم: الخوارج، والروافض، والقدرية، والمرجئة»[3].

## المسألة الثالثة: أهل السنة والجماعة بالمعنى الخاص:

بعد التقرير السابق فإنَّه ثمة أسئلة وجيهة تطرح:

هل يتجزأ الاتباع؟ وهل تتبعَّض السنة؟ وهل يجتمع في الشخص سنةٌ وبدعة؟

والجواب باختصار: إنَّ الاتباع للدين يتجزأ، والأخذ بالسنة يتبعَّض، فقد يكون لدى الشخص اتِّباعٌ في جانبٍ من الدين، وتقصيرٌ في جانب آخر، وأخذٌ بالسنة في جانب، ونقصٌ في الأخذ بها في جانب آخر، وملازمةٌ للسنة في جانب، وابتعادٌ عنها في جانب آخر، كما أنَّ نجاته من الابتداع والنار يتبعَّض: فقد ينجو من بدعٍ ويقع في أخرى، وينجو من الخلود في النار ويكون متوعَّدًا بها.

وبمقدار التقصير في الأخذ بالسنة والاتباع تظهر المخالفة، وإنْ كانت المخالفة في العقيدة فهي الابتداع.

ومن الطبيعي أنَّ أهل السنة والجماعة يتفاوتون في مقدار الالتزام بسنة النبي صلى الله عليه وسلم فهمًا وعملاً واتباعًا، وهذا التفاوت هو ما أدّى لظهور «مدارس» متعددة، ومن الطبيعي أن يدَّعي كلٌّ منهم الالتزام الحقيقي بها، ويُنازع على لقب أهل السنة، وهو ما يُطلق عليه «أهل السنة» بالمعنى الخاص، والذي يُقصد به اتباع السنة المحضة، والابتعاد عن البدع والأخطاء التي وقعت في الأمة الإسلامية، في أبواب معيَّنة من العقيدة، والفقه، والسلوك.

ومن أثبت لنفسه اتباع السنة، والتزام ما جاءت به النصوص الشرعية فإنَّه سينفي هذا المقدار عن غيره ممن خالفه فيها، وينسبُه إلى المخالفة والبدعة، وإن رجعنا إلى مدوَّنات أئمة هذه المدارس وكبار رجالها فسنجد هذا الاتجاه الخاص في تعريف السنة؛ وذلك بحصرها بمنهجهم دون الآخرين، ومن أمثلة ذلك:

قول ابن تيمية رحمه الله: «فلفظ «أهل السنة» يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة، وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة، فلا يدخل فيه إلا من يُثبت الصفات لله تعالى ويقول: إنَّ القرآن غير مخلوق، وإنَّ الله يُرى في الآخرة، ويُثبت القَدَر، وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة»[4].

وقال الإمام أبو إسحاق الشيرازي: «وأبو الحسن الأشعري إمام أهل السنة، وعامة أصحاب الشافعي على مذهبه، ومذهبه مذهب أهل الحق»[5].

(١) الاعتصام، للشاطبي (١/٢١٢).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١).
(٣) الاعتصام (٣/٧٢٠).
(٤) منهاج السنة (٢/٢٢١).
(٥) طبقات الشافعية (٣/٣٧٦).

## من أهم الواجبات المتعلقة بدائرة أهل السنة العامة

الموالاة والمناصرة

إقامة شعائر الدين

### المسألة الرابعة: مقدار الخلاف بين أهل السنة ومكانته:

الخلاف بين مدارس «أهل السنة» خلافٌ علمي، وهو في أصولِ مباحث رئيسة في عددٍ من أبواب العقيدة، وليس في مسائل ثانوية أو فرعية، كالخلاف في بعض مصادر التلقي، وتأويل الصفات، ومسمّى الإيمان، وبعض مسائل القدر، وغيرها، لكنها ليست في مقام الأصول الكبرى التي يقوم عليها الدين (أهل السنة والجماعة بالمعنى العام)، كما أنَّها ليست من الخلاف السائغ الذي يجوز فيه تعدُّد وُجهات النظر، بحسب الضوابط العلمية المعلومة للتفريق بين السائغ وغير السائغ من الخلاف[١].

لذا فإن إنكار وجود الاختلاف بين أهل السنة، أو العمل على إلغائه أو تجاوزه ضربٌ من العبث.

كما أنَّ الوقوفَ عندها، وتضخيمَها، وعقدَ الولاء والبراء عليها يُعدُّ من التحزُّب المذموم.

ومحلُّ نظر مسائل الاختلاف بين هذه المدارس: المباحثُ العلميةُ والتعليميةُ المتخصصة، وليست للامتحان ولا التفريق، ولا إرباك عموم الناس بها، وليس مكانُها المنابر ولا المناسبات العامة.

روى مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ما أنتَ بِمُحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة[٢]».

> **إنكار وجود الاختلاف بين أهل السنة، أو العمل على إلغائه أو تجاوزه ضربٌ من العبث. كما أنَّ الوقوفَ عند الاختلافات، وتضخيمَها، وعقدَ الولاء والبراء عليها يُعدُّ من التحزُّب المذموم.**

وقال الشاطبي ناقدًا من يسلُك أمثال هذه المسالك الخاصّة والدقيقة مع عامة الناس: «ويُتصوَّر ذلك فيمن يتبجَّح بذكر المسائل العلمية لمن ليس من أهلها، أو ذكر كبار المسائل لمن لا يحتمل عقله إلا صغارَها، على ضدِّ التربية المشروعة، فمثلُ هذا يوقع في مصائب، ومن أجلها قال علي: حدِّثوا الناس بما يفهمون...، وقد يصير ذلك فتنةً على بعض السامعين، حسبما هو مذكور في موضعه من هذا الكتاب... فلا يصح للعالِم في التربية العلمية إلا المحافظة على هذه المعاني، وإلا لم يكن مُرَبِّيًا، واحتاج هو إلى عالم يُرَبِّيهِ[٣]».

وقال ابن تيمية: «والواجب أمر العامة بالجمل الثابتة بالنص والإجماع ومنعهم من الخوض في التفصيل الذي يوقع بينهم الفرقة والاختلاف فإن الفرقة والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه ورسوله[٤]».

### المسألة الخامسة: ضوابط ومعالم في التعامل مع مصطلح أهل السنة

مسمى «أهل السنة» بين الانتماء والتحزب:

---

(١) ينظر: الخلاف أنواعه وضوابطه، حسن العصيمي، و: منهجية التعامل مع المخالفين، سليمان الماجد، و: فقه الوفاق، إعداد مركز البيان للبحوث والدراسات، و: كي لا يكون الخلاف معولاً للهدم، د.معن عبد القادر، و: معالم منهجية في الخلاف، عاصم الحايك.

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (١/١١).

(٣) الموافقات (١/١٢٣).

(٤) الفتاوى (١٢/٢٣٧).

تتعدَّد دوائر الانتماء للشخص، فهناك دائرة المشترك الإنساني، ودائرة الإسلام، ودائرة القرابة، ودائرة الجيرة، ودائرة الوطن،.... ونحوها.

والعاقل هو من يستطيع ترتيب هذه الدوائر وأولويَّاتها، ويعطي كلًّا منها حقَّها، ويضعُها في حجمها ومكانها اللائق بها.

وبالنظر إلى ما نحن بصدده: فإن المسلم يعيش في دائرتين: دائرة أهل السنة العامة، ودائرة أهل السنة الخاصة، ولكلٍّ مكانُها ومقامُها، وأحكامُها.

فمن أخصِّ ما يتعلق بدائرة أهل السنة العامة: موالاةُ جميع المسلمين، ومحبَّتهم، ومناصرتهم، وإقامة شعائر الدين معهم، تعليمًا وعملاً، كالصلاة والصيام، والحج، والجهاد، ونحو ذلك، وإقامة مصالح الدنيا المختلفة. وهذا لا يقوم على وجهه إلا بالثقة وحُسنِ الظن بهم وديانتهم وعلمهم، تمامًا كما يُحسن الظن بمن في دائرته الخاصة.

وهذا الانتماء هو الذي وردت به النصوص الشرعية، كالآيات التي تخاطب المسلمين بألفاظ (الأمة، والمسلمين، والمؤمنين)، والأحاديث النبوية التي تفصِّل حقوق المسلمين على بعضهم.

ومن أخص ما يتعلق بدائرة أهل السنة الخاصة: العناية بالمسائل العلمية التخصصية، تأصيلاً، وبحثًا، وتعليمًا، والتعرف على أدلة المخالفين، ومناقشتها.

وإنه لمن الخطأ والخطر نقل ما تختص به الدائرة الخاصة إلى الدائرة العامة، مثل خطب الجمعة، أو بناء مناهج الدعوة والتعليم الموجهة لعامة المسلمين عليها، الذي يجعلها مادة للفرقة والنزاع والاصطفاف الحزبي.

أمَّا عقد الولاء والبراء، والحب والكره، والنصرة على المعنى الخاص فحسب، فهو التعصُّب الأعمى والتحزُّب الممنوع، الذي يؤدِّي إلى تفرُّق الأمّة وإثارة النزاعات بينها.

قال ابن تيمية رحمه الله: «ليس لأحد أنْ يعلِّق الحمدَ والذمَّ، والحُبَّ والبُغضَ، بغير الأسماء التي علَّق الله بها ذلك، فمن كان مؤمناً وجبت موالاته من أيِّ صنف كان، ومن كان كافراً وجبت معاداته من أيِّ صنف كان، والذي يبني محبَّته وبُغضه ومُعاداته ونُصرته على الانتساب لأسماءٍ معينةٍ أو مذهبٍ معينٍ أو جماعةٍ أو حرفةٍ فهذا من أمور الجاهلية المفرقة بين الأمة[1]».

وقال: «فإنْ كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان، فهم مؤمنون، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. وإنْ كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا مثل التعصُّب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم سواء كان على الحق والباطل، فهذا من التفرُّق الذي ذمّه الله تعالى ورسوله؛ فإنَّ الله ورسوله أَمَرا بالجماعة والائتلاف ونهيا عن التفرقة والاختلاف، وأمَرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان»[2].

أخطاء التعامل مع مصطلحي أهل السنة والجماعة بالمعنى العام والخاص:

ويمكن -بناء على ما سبق- إجمال أخطاء التعامل مع مصطلحي أهل السنة والجماعة، بالمعنى العام والخاص بما يلي:

١- الخجل من الانتماء لأهل السنة أو رفض ذلك، بزعم الانتماء للإسلام فحسب، وإنما الإسلام هو السنة والجماعة، وما عداه بدعة وانحراف.

٢- قصر التسمية بأهل السنة والجماعة على المدرسة الخاصة ونفيه عن البقية دون تفصيل.

٣- الخلط بين المصطلحين بتنزيل أحدهما مكان الآخر، وما يتبعه من مشاريع وأعمال.

٤- الانشغال بالمصطلح الخاص ومشاريعه عن المصطلح العام، وعقد الولاء والبراء عليه، وخاصة في أوقات المدلهمات والخطوب.

٥- إنكار وجود الاختلاف بين أهل السنة، أو العمل على إلغائه، أو تجاوزه.

ولعلّنا بهذا التأصيل نكون قد حرّرنا هذه المسألة بما يضع النقاط على الحروف، ويؤسس لقواعد التعامل بين أهل السنة، ويقطع دابر من يريد الفتنة بين المسلمين.

(١) الفتاوى (١٢/٢٣٧).
(٢) الفتاوى (١١/٩٢).

# وكم لله من لطفٍ خفي!

أ. هانيا محمد مصري[1]

**العالم -كل العالم - اليوم قد انقلب رأساً على عقب من جراء وباء الكورونا، وقد ظهرت أضراره الكثيرة وتكاليفه الباهظة في شتى مجالات الحياة.**
**لكن قلة من الناس من ينظر إلى ألطاف الله الخفية فيما يجري، من جلب خير أو دفع شر أعظم، ويعلم ما يجب عليه من وظائف وواجبات في هذا الظرف خاصة.**

المراقب للأوضاع العسكرية والسياسية في الساحة منذ عدة سنوات يكاد يجزم أنَّ حربًا كونية توشك على الوقوع؛ فنُذُرها كثُرت والقادة يتصارعون، أحلافٌ تنهار وأخرى تقوم، ومراكز القوى تتغير، والكبار يتجاذبون قطعة الكعك، ويتناوشون بصواريخهم وقنابلهم.

أما المراقب للحال الاقتصادية الخاصة والعامة فليس أقل تشاؤمًا من ذاك؛ إذ تكررت الانهيارات في العقود القليلة الماضية، والركود يلقي بظلاله ولا مخرج -عادة في رأي المتحكمين في هذا العالم- من الركود إلا بحرب تحرق الأخضر واليابس؛ لتحرك عجلة الآلة العسكرية وتعيد انتعاش الاقتصاد.

وفي المقابل نرى ظلمًا وتجبرًا وطغيانًا قد فاق الظلم الكائن في تاريخ البشرية مجتمعًا، ووقع غالبه على عباد الله الموحدين لا لجرم إلا أن يقولوا ربنا الله، وعمَّ الاستكبار والإلحاد وتُفُكِّه به في النوادي، وفَشَت الفواحش وقُنِّن للشذوذ وحُورب أهل الفضيلة والطهر، وفسدت الروابط الاجتماعية وسادت الفردية، كما حوربت الأسرة والزواج لصالح العهر والبغاء، أما على مستوى الأخلاق فقد استُعلن بالرذائل وبارز الخلق ربهم بالمعاصي جهارًا، ليلاً ونهارًا وأُنفقت في ذلك أموال الأمم.

استُضعف أهل المعروف واستقوى أهل المنكر، وبُدل دين الله، وشاع العقوق والتباغض والتفاخر بالدنيا..

واستوجب الخلق العقوبة..

المشهد مرعب، فهل أَمِن الناس أن ينظر الله إليهم بِمقته كما نظر إلى أهل الأرض قبل بعثة محمدٍ صلى الله عليه وسلم فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب؛ وهم من كان ثابتًا على آثار النبوة السابقة؟!

> **فهل أَمِن الناس أن ينظر الله إليهم بِمقته كما نظر إلى أهل الأرض قبل بعثة محمدٍ صلى الله عليه وسلم فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب؛ وهم من كان ثابتًا على آثار النبوة السابقة**

(١) داعية ومربية

أيفهم هذا الإنسان حقيقة مقت الرب الملك الجبار لأهل الأرض؟!

ترى كيف كان الحال لو قامت مثل هذه الحروب؟

كم سيكون حجم الرعب والهلع والتشرد والقتل، والدمار وانتهاك الإنسانية الذي سيلحق بنا، خاصة من يقطن في بؤر الصراع ومعاقد النزاعات؟

لكن الملك القهار أرسل مخلوقًا واحدًا فردًا من خلقه متناهٍ في الصغر.. أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الملساء في الليلة الظلماء، كائنًا لا يكاد يُرى بالمجاهر..

عطَّل حركة البشرية وتنقلاتها، أوقف الاقتصاد، وعرقل خطط التنمية والصناعات والاختراعات.. أوقف خطط الحروب وآلاتها، وفكَّ آلاف المعتقلين والمسجونين. أوقف الربا والمكوس، وأذل الجبابرة والطغاة وأرغم معاطسهم.

وأفحم الملاحدة حتى أقروا بقدرة العظيم الجبار وخضعت ألسنتهم وقلوبهم لجبروته، أوقف مجمعات الخنا والفجور، وحفلات الرقص والطرب، ستر العورات، وفرّق المختلطين رغمًا عنهم..

لكن.. بلطف وخفاء..

حقًّا إن الوفيات بالمئات أو الألوف في كل بلد، وأن الأرقام تتصاعد، وهذا، مؤلم، ويثير الهلع في النفوس!

لكن يا ترى كم كان سيموت مع كل صاروخ نووي كان يمكن أن يلقى؟!

وكم لله من لطف خفي!

الشعوب الآن قرّت في بيوتها لتأمن من عدوى الفيروس، لكن من كان سيحميها من التشريد والسلب والنهب وهتك الأعراض لو كان الحرب هو البديل؟

وكم لله من لطف خفي!

سيتألم أفراد بسبب هذا المرض، ويموت آخرون، ويجوع آلاف.. لكن هل يقارن هذا بأعداد القتلى والمشوهين والمشردين والجائعين لو كانت الحرب هي البديل..

وكم لله من لطف خفي!

وحقًّا أنه توقفت الأعمال وغلت الأسعار، وعطلت المساجد، وأوقفت الجمع، في أغلب جوامع الأرض، إلا قليل نادر، وتوقفت حلق الذكر..

ولكن لازال لطف الله جار فما توقف واقعا تحرك افتراضا عبر وسائل بديلة عديدة، والداعية الذي كان يحضر درسه العشرات بات الحضور له بالآلاف عبر شبكات التواصل المختلفة، والدرس يكرر مرتين وثلاثا في اليوم الواحد..

وكم لله من لطف خفي!

توقُّف الاختلاط، وغُطيت الوجوه، وقرّت النساء، وانشغل كل فردٍ بخاصّة نفسه وأهله، ولُمّ شمل الأسر، وظهرت خيرية الأمة وتعاضدها وتكاتفها، وانتشرت مجالس العلم، وآب كثير من الناس لربهم.. بلطف وخفاء..

ويبقى المسلم وقّافًا عند آيات الله متأمّلًا فيها، يستمدُّ العبر ويتَّعظ بالحوادث.

فلعل ما حدث استوجبناه بأعمالنا وآثامنا: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وتأمل قوله: {لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا} وليس كله!

وهذا يستوجب الرجوع لله تعالى بالتوبة الصادقة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، والذلة والانكسار بين يديه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

> **ويبقى المسلم وقّافًا عند آيات الله متأمّلًا فيها، يستمدُّ العبر ويتَّعظ بالحوادث**

وقد نعى الله على أقوام وعظهم وزجرهم بأنواع الابتلاءات فلم يتعظوا: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

فليحذر المسلم أن يكون كالمنافق ابتلي ثم عوفي فلم يفقه عن ربه لمَ ابتلاه ولا لمَ عافاه..

روى البخاري ومسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ خَامَةِ الزَّرْعِ يَفِيءُ وَرَقُهُ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ تُكَفِّئُهَا، فَإِذَا سَكَنَتْ

اعْتَدَلَتْ، وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يُكَفَّأُ بِالْبَلَاءِ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ)[1].

فالمؤمن ينزل به البلاء فيتعظ ويرجع ويتوب، يميل مع البلاء يمنة ويسرة، أما المنافق فلا يهتز لبلاء وقع ولا يتعظ لآية نزلت، حتى يكون هلاكه مرة واحدة، كشجرة الأرز لا تهزها ريح حتى يكون وقوعها مرة واحدة، أعاذنا الله.

> **المؤمن ينزل به البلاء فيتعظ ويرجع ويتوب، يميل مع البلاء يمنة ويسرة، أما المنافق فلا يهتز لبلاء وقع ولا يتعظ لآية نزلت**

## وظائف المؤمن عند البلاء:

- الكيّس من تفكر فيما نزل بأهل الأرض، وقام لله بما وظفه فيه، ولم ينشغل عما أريد له..
- وللمؤمن وظائف عدة عند البلاء، منها:
- تفويض الأمر كله لله، واليقين بأنه وحده المتصرف في الكون بما يشاء وكيف يشاء ومتى شاء، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.
- الطمأنينة إلى كفاية الله وعدله وحكمته.
- الاجتهاد في الأخذ بأسباب العافية الشرعية (كالأذكار) والقدرية (التي ينصح بها أهل الطب والخبرة والرقية واستعمال الطب النبوي الوقائي)
- الاستسلام لقضاء الله وقدره والرضى بما ينزل به فيتقلب المرء بين الشكر على النعمة والعافية، والصبر على البلاء والمرض.
- الرجوع إلى الله بالتوبة والذلة والاعتراف بالذنوب، والخوف من نزول العقوبة، واستدفاعها بالإخبات والإنابة.
- تفقُّد آفات النفس وأخلاقها الردية وتزكيتها قبل أن تتفلت.
- تفقُّد أوامر الله التي أمره بها، فما قصر فيه عمله، وما تباطأ فيه بادر إليه، متعلما أحكامها مقيما لها على الوجه الذي يرضيه عنه.
- تفقُّد نواهيه وحدوده فيتوب مما اقترفه ويعيد المظالم والحقوق لأهلها.
- أخذُ نفسه وأهله بشرع الله، وقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعلم العلم الشرعي وتعليمه والعمل به، والاشتغال بكل قربة لله يقدر عليها.
- استنزالُ رحمة الله بالعكوف على القرآن وشغل عمره به تلاوة وحفظا وفهما وعملا واستماعا «لعلكم ترحمون»
- الاجتهاد في إيصال البر والإحسان للخلق فـ «إن رحمة الله قريب من المحسنين».
- التفكر في حكم الله البالغة، وألطافه الخفية، ورحمته الواسعة، والقيام لله بواجب الحمد والشكر.
- الاستعداد للموت بأحسن ما يستطيعه الإنسان، فالموت آتٍ لا محالة ..

من لم يمت بالطعن مات بغيره

الموت حق والورى فانونا

- الأخذ بالآداب الشرعية كحمد الله عند رؤية المبتلى، وسؤال الله العافية، وعدم الشماتة بمسلم .
- ومن قدر الله عليه الإصابة بالمرض فعليه واجب الصبر ليكون كفارة لذنبه، فإن احتسب الأجر وشكر فزيادة في حسناته ورفعة في درجاته، فإن رضي فتلك منازل أولياء الله.. وعليه أخذ كافة الاحترازات لئلا يكون سببا في نقل المرض فلا يورد ممرض على مصحّ، ولا ضرر ولا ضرار.

ربّنا إن الوباء يستشري، والموتى بالآلاف، ولا مُغيث إلا أنت، أنت القادر فلا مُعجز لك، وأنت الرحيم سبحانك، نعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وبرضاك من سخطك وبك منك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

نعوذ بك من تحوُّل عافيتك وزوال نعمتك وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك.

ربنا قد استوجبنا العقوبة وأنت أرحم الراحمين، فارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء أنت ربُّ المستضعفين وربنا، توكّلنا عليك أنت نعم المولى ونعم الوكيل.

(١) أخرجه البخاري (٧٤٦٦)، ومسلم (٢٨١٠).



# الضوابط اللغوية في التعامل مع النصوص الشرعية

أ. عبد الرحمن عبد الله رجو[1]

اللغة العربية سبيل فهم النصوص الشرعية، وضبط استنباط الأحكام منها، والرد على الخطأ في ذلك، وقد اهتم أهل العلم ببيان هذه الضوابط وتقعيدها، واستخدموها في تفسير النصوص الشرعية، وبينوا الأخطاء التي وقعت في مخالفتها، وردوا عليها.. وفي المقال بيان هذه الضوابط وشيء من تطبيقاتها.

اللغة العربية لغة القرآن الكريم، ولسان خاتم الأنبياء والمرسلين، حفظها تعالى بحفظ كتابه العظيم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وهي لغة مخدومة، فقد جُمِع شعرُها ونثرُها، وضُبِطت ألفاظُها، وحُدِّدت لغاتها (لهجاتها)، وعُزِيت إلى قبائلها، ثمَّ قام بعد ذلك علماء اللغة إلى هذا الإرث العظيم، فنظروا في أساليبه وتراكيبه، وفي قوانينه اللفظية والمعنوية، فخرجوا بقواعد وضوابط كفيلة ببقاء لغة العرب بيضاء نقيةً، محميةً من كل اختراع فيها أو ارتجال[2].

ولقد جاءت هذه القواعد في مظانّها من كتب اللغة والأدب والنحو والصرف والبلاغة والتفسير، منها قواعد عامة، وأخرى فرعية جزئية، وقام بعض العلماء بتنبيه المهتمين بدراسة النصوص إلى أهمية النظر في الضوابط اللغوية، كما فعل العلامة ابن هشام (ت ٧٦١هـ) في كتابه مغني اللبيب، والإمام الزركشي (ت ٧٩٤هـ) في كتابه البرهان، والإمام السيوطي (ت ٩١١هـ) في كتابه الإتقان، وغيرهم.

> **اللغة العربية لغة مخدومة، جُمِع شعرُها ونثرُها، وضُبِطت ألفاظُها، وحُدِّدت لغاتها، ونظر علماؤها في أساليبها وتراكيبها، وفي قوانينها اللفظية والمعنوية، فخرجوا بقواعد تحميها من كل اختراع فيها أو ارتجال.**

(١) باحث في الدراسات العربية والإسلامية.
(٢) بيضة الديك، يوسف الصيداوي، ص (٥).

وفي هذا العصر أُستُحدِثتْ طرقٌ ملتوية مليئة بالمغالطات اللغوية في التعامل مع النصوص، نتج عنها أقوالٌ شاذّةٌ في تفسير القرآن والسنة[1]، فاشتدّت الحاجة إلى العناية بقواعد اللغة وضوابطها، سواء كانت في معاني الألفاظ أو في التراكيب.

وفي هذا المقال نعرّج -بعون الله تعالى- على شيء من هذه الضوابط المهمة:

## أولًا: العناية بفهم الكلمة، مفردة ومركّبة:

معرفةُ معاني الألفاظ طريق إلى معرفة موقعها الإعرابي الصحيح في التركيب، وهي سبيلٌ بعد ذلك إلى الفهم الصحيح للنص المراد دراستُه، ولهذا يلزم العناية بها قبل النظر في وجوه إعرابها.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ [النساء: ١٢].

فقد ذكر العلماء وجوهًا عدّة في إعراب كلمة (كلالة)؛ تبعًا لمعناها، فقالوا: إنْ أُريد بها الميّت فهي حالٌ منصوبة، وإن أُريد بها القرابة فهي مفعولٌ لأجله، وإن أُريد بها الورثة فهي صفةٌ لمصدرٍ محذوف، تقديره: يورثُ وراثةً كلالة.

والمختارُ إعرابها حالًا من نائب فاعل يورَث، والتقدير: يورَث حالَ كونه ذا كلالةٍ؛ وذلك لأن المعنى المراد شرعًا هنا هو الميت الذي لا ولد ولا والد له[2].

## ثانيًا: أن يكون معنى اللفظة المختار معروفًا في الاستعمال العربي زمنَ ورود النص:

فلا يُحمل شيءٌ من ألفاظ النص على معنى غير معروف في لغة العرب زمنَ نزول القرآن الكريم؛ وذلك لأنّ القرآن الكريم نزل بلغتهم، وأقوال النبي ﷺ وأحاديثه إنّما جاءت بلسان قومه وُوفق استعمالهم.

فلا يُقبل أن يأتيَ شخص الآن ويفسر آية قرآنية أو حديثًا نبويًا بمعنى لم يعرفه العرب زمنَ التنزيل.

قال الشاطبي: «كلُّ معنى مستنبط من القرآن غير جارٍ على اللسان العربي؛ فليس من علوم القرآن في شيء، لا مما يستفاد منه، ولا مما يستفاد به، ومن ادّعى فيه ذلك فهو في دعواه مبطل»[3].

ولقد ذكر أبو حيان في تفسيره أنه أعرض عن الأقاويل والمعاني التي خرجت في مدلولاتها عن كلام العرب، ومما قاله في ذلك: «وتركتُ أقوال الملحدين الباطنية المخرّجين الألفاظَ القريبة عن مدلولاتها في اللغة إلى هذيان افتروه على الله تعالى»[4].

> **كلُّ معنى مستنبط من القرآن غير جارٍ على اللسان العربي؛ فليس من علوم القرآن في شيء**
> **الإمام الشاطبي رحمه الله**

ومن أمثلة هذا الضابط قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: ٦٣].

ذكر العلماء أن (البعض) شيءٌ من أشياء، وبناء على هذا جاءت تفاسير عدّةٌ للآية[5]: الأول: أُبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه من أحكام التوراة. والثاني: أبيّن لكم ما تختلفون فيه من أمور الدِّين، وهو بعضٌ مما يختلفون فيه. والثالث: أبيّن لكم اختلاف القرون الذين تحزّبوا في أمر عيسى عليه الصلاة والسلام. والرابع: أبيّن لكم بعض ما تختلفون فيه، ثم يُكمّل بيانُ الباقي بشكل تدريجي.

وجاء عن أبي عبيدة وغيره أنّ (بعض) هنا بمعنى (كل)، ولكنّ جمهور أهل العلم اعترضوا على هذا، محتجّين بأنه لا يُعرف في لغة العرب، وأجابوا عما

---

(١) يقوم منهج هؤلاء على أصول عدة، أهمها: أ-المغالطة اللغوية، وهي اختيار معان غير مرادة ولا مقصودة في النصوص الشرعية ولا مرادة عند العرب في هذا السياق، معتمدين على مجرد الورود في القواميس، ومعلوم أن القواميس تذكر كافة استعمالات الكلمة، والسياق هو يحدد المراد. ب-ترك الاستدلال بالسنة النبوية، سواء بالإهمال أو التصريح بعدم حجيتها.

(٢) إعراب القرآن الكريم، الدرويش، (٢/١٧٥). وفتح القدير، الشوكاني، (١/٦٥٣). والتسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، (١/١٨٢). وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (٢/٢٣٠).

(٣) الموافقات، للشاطبي، (٤/٢٢٤).

(٤) تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (١/١٠٤).

(٥) جامع البيان، الطبري، (٢١/٦٣٤). وتفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، (٨/٢٦). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (٧/٢٣٦). ومنهج الزجاج في اختياراته في التفسير، عادل العُمري، رسالة ماجستير، (١/٢٥). والتحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٥/٢٤٧). واللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي ابن عادل، (١٧/٢٨٧). والتسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي، (٢/٢٦٣).

استدلَّ به أبو عبيدة، فمنهم ضعَّفه، ومنهم ردَّه بالكلِّية، بل حكى بعضُهم الإجماع عن أنَّ البعض شيءٌ من أشياء[1].

### ثالثًا: حمل المعنى على ما يناسب سياق النص، قبله وبعده، ما لم يرد مانعٌ من ذلك[2]:

لا يكفي مجرد ثبوت معنى الكلمة في قواميس اللغة للقول به في تفسير النصوص؛ لأنَّ القواميس اللغوية تذكر جميع المعاني التي تُستخدم لها الكلمة، واختيار أحد هذه المعاني لا يكون بالتشهِّي أو الرغبة، بل بالنظر في سياق الكلام، إذ به يُعرَف المعنى المراد للكلمة إذا كان لها أكثر من استعمال في أصلها اللغوي، وبه يُسترشَد إلى تقييد مطلَق، أو تخصيص عام ...

قال مسلم بن يسار: «إذا حدثتَ عن الله فقِفْ، حتى تنظر ما قبلَه وما بعدَه»[3]، وقال ابن جرير الطبري: «وإنَّما قلنا: ذلك أولى الأقوال في هذه الآية بالصواب؛ لأنَّ الآيات قبلها وبعدها فيهم نزلت، فأولى أن تكون هي في معنى ما قبلها وبعدها، إذ كانت في سياق واحد»[4].

> **ثبوتُ معنى الكلمة في قواميس اللغة لا يكفي للقول به في تفسير النصوص، فالقواميس تذكر جميع معاني الكلمة، واختيار أحدها لا يكون بالتشهِّي إنما بالنظر في السياق**

ومن أمثلة هذا الضابط قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

فقوله تعالى: (بلغن أجلهن) في الآيتين الكريمتين يُراد به أجَلُ عدَّة المطلَّقة، ولكن بتأثير السياق يبدو وجود فرقٍ بين كلا المعنيين:

ففي الآية الأولى يخاطِب تعالى الأزواج، بأن يُمسكوا زوجاتهم المطلَّقات طلاقًا رجعيًّا مع القيام بحقوقهن، أو يتركوهن بلا إضرار، وهذا يعني أن العدَّة لم تنقض، وإنما شارفت على الانتهاء، وإلا لم يكن للزوج التخيير بين الإمساك والتسريح، وعليه فمعنى (بلغن أجلهن) هنا: قُربُ انتهاء العدة[5].

وفي الآية الثانية يخاطب تعالى الأولياء: إذا طلق الرجل زوجته، وانقضت عدَّتها، وأراد الزواجَ بها من جديد، فلا تمنعوا ذلك. وهذا يدلُّ على أن معنى (بلغن أجلهن) هنا: انتهاء العدة تمامًا[6]، وإلا لكان للزوج مراجعة مطلَّقته دون حاجة إلى ولي أمرها.

### رابعًا: ألا يأتي بتقديرات لم يثبت لها مثال في لغة العرب:

ومن هنا اشترط العلماء أن يكون الناظر في النص الشرعي متمكِّنًا في اللغة العربية، مليئًا بشعرها ونثرها ونحوها وصرفها؛ لئلا يأتي في توجيه النصوص وتقديراتها بما لا تعرفه لغة العرب من الأساليب والمعاني، وإذا حصل شيء من هذا فهو عن غفلة أو وهم[7].

ومن أمثلة هذا الضابط قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥].

جاء في إعراب الكاف في قوله (كما) أقوالٌ وتقديراتٌ عدة، منها: أن تكون بمعنى مثل، ويكون محلها الرفع خبرًا لمحذوف، تقديره: هذه الحال كحال إخراجك، وجوَّزوا أن تكون حرف جرٍّ، وقالوا بصحة كونها في محل نصبِ صفةٍ لمصدر فعلٍ مقدَّر، تقديره: الأنفالُ ثبتت لله والرسولِ ثباتًا مثلَ ثباتِ إخراجِ ربِّك إياك من بيتك وهم كارهون[8].

وكلُّ هذه التقديرات معروفةٌ في لغة العرب، إلا أنَّ

(١) نفس المصادر في الحاشية السابقة.
(٢) قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين بن علي الحربي، ص (١٢٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (١٣/١).
(٤) جامع البيان، الطبري، (٥٨١/٦).
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (١٥٥/٣)، وتفسير آيات الأحكام، السايس، (١٦٠/١)، وأضواء البيان، الشنقيطي، (١٤٩/١).
(٦) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (١٥٩/٣)، وأضواء البيان، للشنقيطي، (٢٨٣/١).
(٧) مغني اللبيب، لابن هشام، ص (٧٠٦)، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (٣١١/٢).
(٨) إعراب القرآن الكريم، الدرويش، (٥٣٠/٣-٥٣١).

## من الضوابط اللغوية في التعامل مع النصوص الشرعية

- العناية بفهم الكلمة، مفردة ومركَّبة
- أن يكون المعنى المختار معروفًا في الاستعمال العربي زمنَ ورود النص
- حمل المعنى على ما يناسب سياق النص، قبله وبعده، ما لم يرد مانعٌ
- ألا يأتي بتقديرات لم يثبت لها مثال في لغة العرب
- مراعاة الشروط المختلفة في الأبواب النحوية
- حمل النص الشرعي على أصح وأفصح الوجوه في العربية
- إجراء التقديرات على الأصل والظاهر، وعدم العدول إلى خلافه إلا لسبب صحيح
- التقدير الإعرابي الموافق للأدلة الشرعية مقدّمٌ على غيره

بعض العلماء جعل الكاف حرفًا للقسم، قال: الكاف بمعنى واو القسم، و(ما) بمعنى الذي، وهي تعود على اسم الجلالة (الله)، والتقدير: واللهِ الذي أخرجك من بيتك... ليُجادِلُنَّك. ولقد ردَّ العلماء هذا التخريج؛ لأنَّه لا يُعرف عند العرب مجيءُ الكاف حرفًا للقسم[1].

### خامسًا: مراعاة الشروط المختلفة في الأبواب النحوية:

العرب يشترطون شيئًا في باب من الأبواب النحوية، ثم تراهم يشترطون نقيضه في باب آخر منها، وإذا لم يتنبَّه الدارس لمثل هذا فإنه يعرّض نفسه للوقوع في الوهم والخطأ في التعامل مع النصوص.

ومن أمثلة ذلك:

قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٦٦].

قوله (الصِّراطَ): منصوب بنزع الخافض، ومن وجوه إعرابه أيضًا أن يكون ظرفًا مكانيًا، كما جاء عن بعض العلماء، منهم الزمخشري في تفسيره[2]، ولكنَّ ابنَ هشام في كتابه: المغني ردَّ هذا التقدير، واعتبره من الوهم الذي وقع فيه الزمخشري؛ لأنَّ من شروط الظروف أن تكون مبهمة، وكون (الصراط) هنا غير مبهم فلا يصح إعرابه ظرفًا.

ولقد استفاض ابن هشام في ذكر الأمثلة على هذا الضابط، وذكر أنواعًا كثيرة من هذه الشروط[3].

### سادسًا: حمل النص الشرعي على أصح و أفصح الوجوه في العربية:

على الناظر في النص الشرعي أنْ يحملَ إعرابَه على أحسن الوجوه وأفصح التقديرات، فيحفظه من الوجوه الضعيفة والشاذة، وينزّهه من طرائق التكلُّف غير المستساغة، وهذا الضابط هو عادةُ أهل اللغة

---

(١) مغني اللبيب، لابن هشام، ص (٧٠٧). إعراب القرآن الكريم، الدرويش، (٣/٥٣٥).
(٢) إعراب القرآن الكريم، الدرويش، (٨/٢٢٢)، والكشاف عن حقائق التنزيل، للزمخشري، (٤/٢٧).
(٣) مغني اللبيب، لابن هشام، ص (٧٤١).

وطريقتهم في التعامل مع النص القرآني.

قال ابن سيده: «وهكذا عادتنا في إعراب القرآن، لا نسلك فيه إلا الحَمْل على أحسن وجه»[1].

وقال الطبري: «وكلام الله جل ثناؤه أفصح الكلام، فغير جائز توجيهه إلا إلى الذي هو أولى به من الفصاحة»[2].

ولقد ترك أبو حيان في تفسيره تقادير كثيرة، وبيَّن أن الداعي لتركها كونها من التقادير البعيدة، والتراكيب القلقة والمجازات المعقَّدة[3].

ومن الأمثلة على هذا الضابط قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣].

فهذه الرؤيا في الآية الكريمة رؤيا منام، وجاء في قولٍ: إنها رؤيا عين، وقد رُدَّ هذا التفسير؛ لكونه لا يلائم كلامَ العرب وفصاحتَهم؛ فالمعنى: لقد أراك اللهُ يا محمدُ الأعداءَ في منامك قليلًا، ولو أراكهم كثيرًا لخرتم وجبُنتم عن اللقاء ... والذي يناسب هذا المعنى رؤيا المنام.

قال القرطبي:» ولكن الأُولى أسوغ في العربية؛ لأنه قد جاء: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ فدل بهذا على أن هذه رؤية الالتقاء، وأن تلك رؤية النوم»[4]. ويؤيِّده أن (أرى) متعدِّية لمفعولين هما: الكاف، والهاء، في قوله: (يريكهم)، فـ(أرى) هنا قلبية، وليست بصرية، وكذا مجيء اللفظ (منامك) صريحًا في النوم، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه[5].

> كلامُ الله جلَّ ثناؤه أفصحُ الكلام، فلا يُحملُ إعرابُه إلا على أفصح التقديرات

## سابعًا: إجراء التقديرات على الأصل والظاهر، وعدم العدول إلى خلافه إلا لسبب صحيح:

قال رضي الدين النحوي: «إنَّما يترك الظاهر إلى المقدَّر إذا كان المقدَّر أقوى من الظاهر... أو إذا تعذَّر الحمل على الظاهر»[6].

وقال الأمين الشنقيطي: «والتحقيق الذي لا شكَّ فيه، وهو الذي كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعامة علماء المسلمين أنَّه لا يجوز العدول عن ظاهر كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حال من الأحوال ... حتى يقوم دليلٌ صحيحٌ شرعيٌّ صارفٌ عن الظاهر إلى المحتمل المرجوح»[7].

ومثال هذا قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

جعل ابن العربي رحمه الله (العظامَ) مفعولًا به لـ (يُحيي) على الظاهر، دون تأويلِ محذوفٍ، إذ معروف في العربية إقامة المضاف إليه مقام المضاف، والتقدير: من يُحيي أصحاب العظام. ولقد صحح ابن العربي الأول، وهو بقاء الآية على ظاهرها دون تقدير المضاف، قائلًا: «إنما يكون ذلك إذا احتيج إليه لضرورة، وليس هاهنا ضرورة تدعو إلى هذا الإضمار، ولا يفتقر إلى هذا التقدير، وإنما يحمل الكلام على الظاهر؛ إذ الباري سبحانه قد أخبر به، وهو قادر عليه، والحقيقة تشهد له؛ فإن الإحساس الذي هو علامة الحياة موجود فيه»[8].

يذكر ابن العربي هذا الضابط، مع العلم أن المعنى الآخر سائغٌ لغةً وشرعًا، فكيف إذا كان التأويلُ والإضمار يُلغي المعنى الظاهر، ويَصرفه عن حقيقته؟!

(١) إعراب القرآن الكريم، منسوب لابن سيده، ص (١٦).
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري، (٣٩٨/٩).
(٣) تفسير البحر المحيط، لأبي حيان، (١٠٣/١).
(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٢٢/٨).
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (١٣/١)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٤٩٧/٤).
(٦) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب، (٤١٢/٣).
(٧) أضواء البيان، للشنقيطي، (٧/ ٢٦٦).
(٨) أحكام القرآن، لابن العربي، (٣٣/٧).

> **لا يجوز العدول عن ظاهر كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ... حتى يقوم دليلٌ صحيحٌ شرعيٌّ صارفٌ عن الظاهر إلى المحتمل المرجوح**

## ثامنًا: التقدير الإعرابي الموافق للأدلة الشرعية مقدَّمٌ على غيره:

فالمعنى الصحيح هو العُروة التي يُستمسَك بها، فإذا تنوَّعت التقديرات النحوية، وتجاذبت مع المعاني، فإنه يقدَّم حينها التقدير الموافق للمعنى الصحيح، خاصة إذا دُعِّم هذا المعنى بأدلة شرعية معتبرة.

قال ابن جني: «فإن أمكنك أن يكون تقديرُ الإعراب على سَمْت تفسير المعنى فهو ما لا غاية وراءه، وإن كان تقديرُ الإعراب مخالفًا لتفسير المعنى تقبَّلْتَ تفسيرَ المعنى على ما هو عليه، وصحَّحتَ طريقَ تقدير الإعراب حتى لا يشذَّ شيءٌ منها عليك»[1].

وقال العز بن عبد السلام: «وقد يقدِّر بعضُ النحاة ما يقتضيه علم النحو، لكن يمنع منه أدلة شرعية، فيُترك ذلك التقدير ويقدَّر تقديرٌ آخر يليق بالشرع»[2].

ومثال ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

قدر بعض العلماء قوله تعالى: (وَمَنِ اتَّبَعَكَ) في محل رفع معطوفًا على اسم الجلالة (الله)، والتقدير: حسبُك الله، وحسبُك المؤمنون، أي: كافيك اللهُ، وكافيك المؤمنون[3].

ولقد ردَّ ابن القيم هذا التقدير؛ لأنَّ المعنى المتخرَّج عليه مخالفٌ للأدلة الشرعية، فالحسبُ (الكفاية) لله وحده، ولا تكون لغيره[4]؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

ولهذا رجّحوا غيره، واختاروا من التقديرات ما يوافق المعنى الشرعي الصحيح، ومن ذلك:

أن تكون (مَنْ) في محل رفع خبرًا لمبتدأ محذوف، والتقدير: يا أيها النبيُّ حسبُك الله، وحسبُ من اتبعك[5]. وقدر بعض العلماء (مَنْ) في محل جرٍّ معطوفًا على الضمير (الكاف) في قوله: (حسبك)، وعليه يكون المعنى: اللهُ كافيك وكافي المؤمنين، وهذا المعنى موافق للتقدير الذي قبله. وهو الموافق للأدلَّة الشرعية، ويؤيِّده ما جاء عن الشعبي وعطاء وعبد الرحمن بن زيد رحمهم الله تعالى[6].

> **الضوابطُ اللغويةُ طريقُ الفهمِ الصحيح للنصوص الشرعية، ووقايةٌ من مغالطات المنحرفين العابثين، الذين رفعوا رايةَ التفسير اللغوي الحديث، وهم يُناضلون لهدم ثوابت الأمَّة وتدمير بنائها.**

## لماذا الاهتمام بالضوابط اللغوية؟

سبق الحديث أن الضوابط اللغوية تُساعد الناظر في النصوص الشرعية على الفهم الصحيح، وإذا أخطأ بعد بذل الجهد وإفراغ الوسع فهو معذورٌ بإذن الله تعالى... والاهتمامُ بهذه القواعد مطلوبٌ أيضًا للوقاية من المنحرفين والعابثين، الذين يُناضلون لهدم ثوابت الأمَّة وتدمير بنائها.

وممّن حمل لواء العبث بالنصوص الشرعية وأحكامها في الوقت الحالي برفع راية التفسير اللغوي الحديث المعاصر: محمد شحرور، وعلي منصور الكيالي، وتبعهم على ذلك آخرون، فقد خرجوا على الناس بمغالطات لغوية في تفسير النصوص، حتى وصلت العبثية بشحرور إلى القول: «أما القول بأن (سبحان الله) هي تنزيهٌ لله عن النقائص والعيوب فهو قول قد مضى زمانه»[7]. ومن أغاليطهم في ذلك[8]:

---

(١) الخصائص، لابن جني، (١/٢٨٤).
(٢) علم إعراب القرآن، يوسف العيساوي، ص (٢٨٣).
(٣) أضواء البيان، للشنقيطي، (٢/١٠٤). والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٨/٤٣). وإعراب القرآن وبيانه، الدرويش، (٤/٣٨).
(٤) زاد المعاد، لابن قيم الجوزية، (١/٣٥-٣٦).
(٥) إعراب القرآن الكريم، الدعاس، (١/٤٣٧).
(٦) أضواء البيان، الشنقيطي، (٢/١٠٤). وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (٤/٨٦).
(٧) الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، محمد شحرور، ص (٢٢٤).
(٨) ينظر: بيضة الديك: نقدٌ لغويٌّ لكتاب «الكتاب والقرآن» لمحمد شحرور، إعداد يوسف الصيداوي. وبؤس التلفيق، نقد الأسس التي قام عليها طرح محمد شحرور، ليوسف سمرين. وما جاء من ردود في الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) على علي منصور الكيالي.

١. تفسير (جُيُوبِهِنَّ) في قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

جاء شحرور إلى معنى الجيب عند العامَّة، وهو ما توضع فيه الدراهم ونحوها[١]، وإلى أحد معاني كلمة (الجوب) في اللغة، وهو الخرق، فاستحدث منهما تعريفًا لم يقله أحدٌ غيره، قال: «والجيب كما نعلم له طبقتان لا طبقة واحدة... فالجيوب في المرأة لها طبقتان أو طبقتان مع خرق، وهي ما بين الثديين وتحت الثديين وتحت الإبطين والفرج والأليتين»[٢].

وهو بهذا (العبث) خالفَ أهل اللغة وأهلَ التفسير، فقوله تعالى: (جُيُوبِهِنَّ): جمع جيب، وهو في الاستعمال العربي طوقُ القميص والثوب ونحوُهما، أي الفتحة التي يدخل منها الرأس، ولما كان موضعُ الفتحة الصدرَ والنحرَ سمّي به، وبه قال أهل التفسير: وليُسدِلْنَ ويُرخِينَ خمارهنَّ على النَّحر والصَّدر والعُنُق. فكلمة المفسرين واللغويين واحدة في الآية[٣].

وهذا التفسير لم يُعرف عند العرب وقت نزول الوحي، بل مخالف للمعنى الشائع عند العرب قبل ذلك، فقد كانوا يستخدمونه بمعنى الطوق المنفتح على النحر، وهذا معلوم مشهور في شعرهم ونثرهم؛ وقد أنشدوا في ذلك العديد من الأشعار والمراثي لقتلاهم في غزواتهم وحروبهم، فكانت نساءُ القتيل يشقُقْنَ جيوبهن دون سواها من ثيابهن، قال طرفة بن العبد[٤]:

فإن متُّ فانعيني بما أنا أهلُه

وشقّي عليَّ الجيبَ يا ابنةَ معبدِ

وفي زمن ظهور الإسلام استمرَّ استعمالُ العرب لهذه الكلمة، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (ليس منَّا مَنْ ضربَ الخُدُودَ، وشقَّ الجُيُوبَ، ودعا بدعوى الجاهليَّةِ)[٥].

فالعَوَرُ ظاهرٌ بائنٌ في تفسير شحرور، فما الجيبُ الذي يطلب طرفةُ من ابنة أخيه أن تشقَّه حزنًا عليه؟! وأيّ جيبٍ ينهى النبيُّ عليه السلام أُمَّتَهُ عن شقّه؟!

٢. تفسير الحول في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٣٣].

جاء علي منصور كيالي بمعنى مخترع لكلمة (الحول) في الآية الكريمة، حيث ادَّعى أنَّ الحول ليس بمعنى السنة، بل بمعنى عشرةِ أشهرٍ ونصف! ثم بنى على مقولته أحكامًا، منها: وجوب الزكاة بعد مضيّ عشرة شهور ونصف، وليس اثني عشر شهرًا قمريًّا.

وهذا القول مخالف لما اتَّفق عليه أهل اللغة، فالحول عند العرب سَنَةٌ بأسرها، كما نقل ذلك ابن منظور والفيروزآبادي وابن سيده والزبيدي والهروي والفيومي وغيرهم[٦]. وهو مخالف للمعنى الشرعي للحول أيضًا، فالفقهاء متفقون على أن الحول اثنا عشر شهرًا قمريًّا[٧].

> **المعنى الصحيح المؤيَّد بالأدلة الشرعية هو العُروة التي يُستمسَك بها، وهو التقدير المختار إذا تنوَّعت التقديرات النحوية، وتجاذبت مع المعاني**

وفي الختام: إنَّ الحاجة ماسَّةٌ إلى العناية بهذه الضوابط اللغوية، لتقوم بدورها في ترشيد فهم النصوص الشرعية، وفي تربية الدارسين على التأني والتريث عند تفسيرٍ أو استنباطِ حكمٍ من آية قرآنية أو حديث نبوي، وفي معرفة الزائغين عن المنهج الصحيح في التعامل مع النصوص، وثمَّة قواعد لغوية كثيرة تحتاج إلى اهتمام أبناء العربية، فالعمل على جمعها ودراستها وإظهارها هو التقدير الحقيقي لجهود أئمتنا الذين فَنِيَت أعمارُهم في حفظ هذه اللغة.

---

(١) جاء في كتاب العامي الفصيح، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، باب الجيم، كلمة (جاب):» الجيب (عند العوام): ما توضع فيه الدراهم ونحوها، ولا يعرفون استعمال هذه الكلمة في معناها الفصيح، وهو ما يُدْخَلُ منه الرأس من الثوب والقميص ونحوهما».

(٢) الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، محمد شحرور، ص (٦٠٦).

(٣) المعجم الوسيط، مجموعة من المؤلفين، (١٤٩/١)، وتاج العروس، للزبيدي، (٢١٠/٢)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٠٨/١٨)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (٤٦/٦)، وتفسير آيات الأحكام، للسايس، (٥٨٧/١)، وتفسير الجلالين، (٤٦٠/١).

(٤) ديوان طرفة بن العبد، ص (٢٩).

(٥) أخرجه البخاري (١٢٣٢)، ومسلم (٢٩٦).

(٦) لسان العرب، لابن منظور، (١١/ ١٨٤)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي، (١٢٧٨/١). والمحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، (٥/٤)، والمخصص، لابن سيده، (٤٠٣/٢)، وتاج العروس، للزبيدي، (٣٦٥/٢٨)، وتهذيب اللغة، للهروي، (١٥٥/٥)، والمصباح المنير، للفيومي، (٢٩٢/١).

(٧) المبسوط، للسرخسي، (٢٩٥/٢)، وشرح الزركشي على مختصر الخرقي، (٣٦٣/١). وفتح القدير، للشوكاني، (٢٧/٥).

# صقل الشخصية وتجديد الحياة .. (معجزة التربية الإسلامية)

د. عماد كنعان[1]

شخصية الإنسان سر نظرته للوجود، ومفتاح تعامله في الحياة، وسلوكه مع الآخرين، والفكر والمعتقد هما أساس تشكيل وصقل هذه الشخصية، وقد وضع الإسلام أسسًا لهذا التأسيس، كما عمل على إصلاح الموجود منها حتى غدوا سادة الدنيا، وقادة العالم.

## نظرة تربوية في مفهوم صقل الشخصيّة:

تعد الشخصيّة القوية إحدى الصفات التي تجعل الإنسان واثقًا من نفسه الهلوعة بالفطرة، والجزوعة بالجِبلَّة، قادرًا على التواصل مع الآخرين بشكل أنجع وأنفع، هذا بالإضافة إلى قدرته على اتّخاذ القرارات وحلّ المشكلات التي لا بد من قدومها يومًا ما؛ حيث خلق الله سبحانه الإنسان في كَبد، ولعله يحسن بنا أن يكون من طلائع هذا المقال عرض خطوات يسيرة تقترحها المدارس التربوية المعاصرة، تساعد في بناء شخصيّة قوية مستقلة.

وترسم التربية الإسلامية المعاصرة في هذا المقام خطوطًا آمنة لملامح تلكم الشخصية الإنسانية الفذَّةِ، وهي درر نفيسة ونصائح ثرّة مبذولة بين يدي القارئ الكريم:

١. الإيمان بالله تعالى: فالإيمان يقوي شخصيّة المؤمن، ويُدخِل الهدوء والسكينة إلى قلبه، حيث إنه يهتدي إلى سر هذا الوجود المتخم بالمتغيرات، والمحفوف بالمحن، والحافل بالمنح، فيلحظ ببصيرة المؤمن أن كل نازلة هي قدر إلهي كله خير.

٢. تصحيح تصوّر الإنسان عن نفسه: فتحث الإنسان عبر تغذية راجعة حصيفة دقيقة نحو التركيز على الإيجابيات الموجودة في أكناف النفس البشرية، ثم تشرّع له فريضة توظيفها فيما ينفعه والآخرين، وتوجهه نحو ما يناسبها من المجالات والعلوم والأعمال.

٣. تنمية المهارات الاجتماعية: وتغذية أساليب التواصل والتعلم والبناء المعرفي والممارسة الرياضية، بما يزيد من رصيدنا المعرفي والقيمي والمهاري. حتى نشارك من حولنا بالحوارات دون مراء مفسد.

٤. الانضمام إلى الأعمال التطوعية: فإنّ المشاركة بالأعمال الجماعية والتعاونية التطوعية تزيد

(١) دكتوراه في التربية من جامعة دمشق، أستاذ جامعي في عِدَّة جامعات، باحث وكاتب، مُعدُّ ومُقدِّم برامج تلفزيونية.

من معرفة سجالات الأيام وطبائع الناس، وتعمل على تقوية ثقة الشخص بنفسه، وتعرفه صالح الناس من طالحهم.

> **الإيمان يقوي شخصيّة المؤمن، ويُدخِل الهدوء والسكينة إلى قلبه، حيث إنه يهتدي إلى سر هذا الوجود المتخم بالمتغيرات، والمحفوف بالمحن، والحافل بالمنح**

## رؤية إسلامية لفقه صقل الشخصية:

وإننا نقع في هذه الرؤية التربوية المقتضبة السابقة على خير غفير، وتقارب مهم للغاية، ينسجم كثيرًا مع ما تفتحت عنه أنوار المنهج التربوي النبوية، حيث وَثَّقتْ أسفار التاريخ المنصفة إنجاز الصحابة لنهضة مبهرة أفضت إلى تحويل قومٍ نالت الجاهلية نصيبًا وافرًا من سلامة عقائدهم، وسداد أقوالهم، ورُشد أفعالهم، بحيث شاع بينهم التدابر والتناحر، والوقوع في محرمات عديدة، تصادم العقل، وتخالف ما ينبغي أن يكون عليه المرء في حياته الاجتماعية.

ولما أذن الله بطلوع فجر الرسالة الخاتمة التي أنزلت على قلب رجل من أعيان أبنائهم، حيث تكلَّلوا بشرف تكليفهم بفريضة تبليغها؛ لَيَحْمِلُوا بذلك أمانة تَنوء بحملها الجبال الراسيات، ولتبدأ في إثر ذلك إرهاصات معجزة مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم التربوية التي غدا بفضلها أسيادُ العصبية العمياء مناراتٍ مُشِعَّةً تنشر أطياف التوحيد والعدل في أرجاء المعمورة، وذلك بعد أن نشبت تحولات جذرية مذهلة في معتقدات الصحابة وسلوكياتهم، فغدوا بوارق أمل يهدي الله بهم سائر الخلق إلى مكارم الأخلاق.

> **وَثَّقتْ أسفار التاريخ المنصفة إنجاز الصحابة لنهضة مبهرة**

## مصعب الخير، والميلاد الجديد:

إن النماذج الحية التي تبرهن على ادعاء ما سلف أكثر من أن تحصى، ونذكر منها من باب تقديم كوبٍ ماءٍ بوصفه عَيِّنَةً لماءِ نهرٍ عذبٍ زُلالٍ، ما كان من خبر مصعب بن عميرٍ أحد حملة اللواء الأمناء، الذي عاش مهاجرًا، ومات شهيدًا، وهو الذي ترك رخاء الجاه والثراء، مستبدلاً به فقرًا مدقعًا، وغربةً مضنيةً، فهو معروف بين أهل مكة أنه رقيق البشرة، حسن اللّمة، ليس بالقصير ولا بالطويل، ومن خصاله أنه كان (أعطر أهل مكة)، ولقّب بين المسلمين (مصعب الخير)، وقد استشهد يوم أحدٍ على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة، وهو ابن أربعين سنةً أو يزيد قليلاً، فوقف عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بردةٍ مقتولاً، فقال: (لقد رَأَيْتُكَ بمكة وما بها أحدٌ أرَقَّ حُلَّةً، ولا أحسن لِمَّةً منك، ثم أنت شعث الرأس في بُرْدَةٍ!)[1].

لقد هَجَرَ مصعب الخير ضروب الرفاهية قاطبةً ليَلِجَ إلى رحاب دين الله حتى وإن كانت الضريبة فقراً يُمَرِّغُ النفس بلظى صحراءٍ قاسيةٍ تطال سياطُ قهرها المأكل والملبس والمشرب والمسكن وحتى سُنَنَ الدفن عند الموت.

وحمل مصعب الخير اللواء يوم أحدٍ بعد أن خالف الرُماة وصية قائد جيش المسلمين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمرَ أميرهم عبد الله بن جبير، فلما غشي المشركون جيش المسلمين ثبت به مصعبٌ، فأقبل عليه ابن قميئة كالسيل وهو أحد أعتى فرسان المشركين فضرب يده اليمنى فقطعها، ومصعب يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ثم أخذ اللواء بيده اليسرى، وحنا عليه مجتهدًا في أن يحفظ راية المسلمين خفاقةً، فضرب يده اليسرى فقطعها، فحَنا على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره، وراح يرتّل الآية الكريمة السابقة نفسها، ثم حمل عليه الثالثة بالرّمح فأنفذه واندق الرّمح، ووقع مصعب وسقط اللواء[2].

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨٦/٣) بهذا اللفظ، وهو عند الحاكم في المستدرك (٤٩٠٤).
(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٩٠/٣)، وأصل الحديث في البخاري (١٢٧٦).



> هَجَرَ مصعب الخير ضروب الرفاهية قاطبةً لِيَلِجَ إلى رحاب دين الله حتى وإن كانت الضريبة فقراً يُمَرِّغُ النفس بلظى صحراءٍ قاسيةٍ تطال سياطُ قهرها المأكل والملبس والمشرب والمسكن وحتى سُنَنَ الدفن عند الموت

وفي قراءةٍ تحليليةٍ لحادثة ارتقاء سيدنا مصعبٍ شهيداً يقول الصحابيّ خباب: هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحدٍ، فلم يوجد له شيءٌ يكفن فيه إلا نَمِرَةً، كانوا إذا وضعوها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعوها على رجليه خرج رأسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اجعلوها مما يلي رأسه، واجعلوا على رجليه من الإِذْخِرِ)، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يَهْدُبُهَا»[1].

## فَنُّ الإصلاح بالإحسان:

ومن باقات تلك الوقائع الرائعات في السيرة النبوية التي تبين قوة أثر التربية النبوية في تغيير مسار العديد من الناس على نحو كامل ما عَزَمَ عليه فضالة بن عمير بن الملوّح من الإقدام على جريمة طعن نَبِيِّ الله صلى الله عليه وسلم في بيت الله الحرام، فلما دنا فضالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، خاطبه قائلاً: «أفضالة»؟ قال فضالة: نعم يا رسول الله، قال: «ماذا كنت تحدّث به نفسك؟»، قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «استغفر الله».

ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليَّ منه.

قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأةٍ كنت أتحدث إليها فقالت: هلم إلى الحديث؟ فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا
يأبى عليك الله والإسلام
لو ما رأيت محمداً وقبيله
بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيّنًا
والشّرك يغشى وجهه الإظلام[2]

## كيف أصنع من عدوٍّ حاقدٍ، خليلاً وفيًا؟

وتتجلى ملامح الشمائل المحمدية في حُلَّةٍ أبها مكارم الأخلاق في حادثة يرويها لنا البيهقي في كتابه «دلائل النبوة» فيقول: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جمعًا من غطفان من بني ثعلبة قد تجمعوا في مكان يسمى (ذَا أَمَرَّ) يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعهم رجل منهم يقال له: غَوْرَث بْنُ الْحَارِثِ بن محارب.

فنَدَب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين، وخرجوا في سبيل الله تعالى، لكن حصل أن هربت منه الأعراب فوق ذرا من الجبال، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في موضع (ذَا أَمَرَّ) وعسكر به، فأصاب جيش المسلمين مطر كثير، فذهب رسول الله

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٦٠٦٩). ومعنى (نَمِرَة): الكساء الملون المخطط، وتجمع على نمرات ونمور، و(يَهْدُبُهَا): يجتنيها ويقطفها.
(٢) سيرة ابن هشام (٤١٧/٢).

صلى الله عليه وسلم لحاجته، فأصابه ذلك المطر فبلّ ثوبه، وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وادي (ذَا أَمَرّ) بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه فنشرها لتجف، وألقاها على شجرة، ثم اضطجع تحتها، والأعراب ينظرون إلى كل ما يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقالت الأعراب لغَوْرَث بْنِ الْحَارِثِ، وكان سيدها وأشجعها: قد أمكنك محمدٌ من نفسه، وقد انفرد من أصحابه، حيث إن غوث بأصحابه لم يغث حتى تقتله، فاختار سيفًا من سيوفهم صارمًا، ثم أقبل مشتملا على السيف، حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف مشهورًا، فقال: يا محمد!، من يمنعك مني اليوم؟ قال: «الله عز وجل».

ثم بعث الله جبريل عليه السلام حيث سقط السيف من يده بمجرد جواب النبي صلى الله عليه وسلم: (الله)، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقام على رأسه، فقال: «من يمنعك مني؟»، قال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، لا أكثّر عليك جمعًا أبدًا.

فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه، ثم أدبر غَوْرَثُ، ثم أقبل بوجهه، ثم قال: والله لأنت خير مني، قال رسول الله: «أنا أحقّ بذلك منك»، فأتى قومه، فقالوا: أين ما كنت تقول! وقد أمكنك والسيف في يدك؟ قال: قد كان والله ذلك رأيي، ولكن نظرت إلى رجل أبيض طويل فدفع في صدري، فوقعت لظهري، فعرفت أنه ملكٌ، وشهدت أن محمدًا رسول الله، والله لا أكثّر عليه، وجعل يدعو قومه إلى الإسلام[1].

ويصح مثالاً على صقل الشخصية ما وقع للصحابية الجليلة تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية الملقبة بالخنساء رضي الله عنها، فقد روي أنها ظلت خمسة عشر عامًا وهي ترثي أخاها صخراً، وأنشدت مئات الأبيات من الشعر في رثائه، وأجمع أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قط قبلها ولا بعدها أشعر منها.

ومن قطافِ بليغ شعرها الموثّقِ، وبالغِ أساها وعميقِ فاجعتها، ونحيبها الآسر الدامي، قولها:

ذكرتكَ فاستعبرتُ والصَّدرُ كاظمٌ
على غصَّةٍ منها الفؤادُ يذوبُ

وقولها:

يا عينِ جودي بالدّموعِ الغِزَار
وابكي على اروعَ حامِي الذمارْ

وقولها:

بكتْ عيني وعاوَدَتِ السُّهودا
وبتُّ اللّيلَ جانحَةً عَميدا

> **إن هذا التجديد للحياة في سيرة أم الصابرات المحتسبات الخنساء ما كان ليحدث لولا أن الإسلام صقل شخصيتها، ورباها تربية إسلامية قائمة على أسس مَكِيْنَةٍ لا تُفَضُّ لِعُرَاهَا حُزمَة**

لكن بعد أن أسلمت وحسن إسلامها انقلب حالها، وضربت للنساء أروع الأمثلة في البطولة والصبر ورباطة الجأش، فحينما كان المسلمون يتجهزون لغزوة القادسية جمعت أبناءها الأربعة وقالت لهم: يا بني إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم لَبَنُو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خُنْتُ أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هَجَّنْتُ حسبكم، ولا غَيَّرْتُ نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شَمَّرَتْ عن ساقها، واضطرمت لظى على سياقها، وجللت ناراً على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة، فخرج بنوها قابلين لنصحها عازمين على قولها، فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم، واستشهدوا الأربعة جميعًا ومعهم أبوهم، فبلغها الخبر فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته[2].

إن الانقلاب في موقف الخنساء رضي الله عنها حَوَّلها

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة في دلائل النبوة (١٠٣١)، وأصله في الصحيحين: البخاري (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣).
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، للقرطبي (١/٥٩٠ - ٥٩١).




من سيدة الحِدَادِ عند العرب قديمًا وحديثًا إلى سيدة مؤمنة رضيت بقضاء الله تعالى وأسلمت أمرها إليه طائعة خاشعة منيبة، إن هذا التجديد للحياة في سيرة أم الصابرات المحتسبات الخنساء ما كان ليحدث لولا أن الإسلام صقل شخصيتها، ورباها تربية إسلامية قائمة على أسس مَكِيْنَةٍ لا تُفَضُّ لِعُرَاهَا حُرْمَة.

> **النبي صلى الله عليه وسلم حرص على تربية أصحابه تربية قرآنية، حيث أنشأ الفرد وأقام الدولة على هذا الأساس المتين**

## قطوفٌ دانيةٌ:

إن المنهج النبوي في التربية والتعليم نجح نجاحًا باهرًا ليس له مثيل في التاريخ الإنساني حينما استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن ينشئ جيلاً راقيًا من الصحابة يتمتعون بشخصية إسلامية متميزة، لم يستطع المفكرون والمصلحون وعلماء الاجتماع والفلاسفة في شتى بقاع الأرض قديمًا وحديثًا؛ أن يَصِلوا بمجتمعاتهم إلى ما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم بالمجتمع الإسلامي، وهذا دليل واضح على أن التربية الإسلامية قادرة على أن تسمو بالمجتمع إلى أرقى مستوى يمكن أن يصل إليه بنو البشر.

ولعل السِرّ في ذلك يتجلى في عاملين رئيسين:

الأول منهما: العناية الإلهية العظيمة المتمثلة بالوحي الذي كان رفيقًا هاديًا ومعينًا للنبي صلى الله عليه وسلم في أثناء تربيته لجيل النصر المنشود، والذي من أدلته وشواهده قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، وقوله سبحانه:﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

وثانيهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم حرص على تربية أصحابه تربية قرآنية، حيث أنشأ الفرد وأقام الدولة على هذا الأساس المتين، وجعلت هذه التربية الإيمانية الصحابة ينقادون انقيادًا تامًا للأوامر الدينية بدافع من عقيدتهم، دون حاجة لرقابة الخَلْق، ودون خوف من العقاب الدنيوي المُقَدَّر، حتى أن المذنب كان يبادر بطلب إنزال العقوبة بحقه حتى يُطَهِّرَ نفسه من رِجْسِ خطيئته.

# استقلال السنة بالتشريع عن القرآن الكريم

أ. جهاد بن عبد الوهاب خيتي[1]



السنة النبوية شقيقة القرآن في الوحي، وواجبة الاتباع، وهي من الوحي الذي تكفل الله تعالى بحفظه، وقد جات بموافقة الأحكام التي وردت في القرآن وأكّدتها تارة، وجات مبيِّنة موضحة لها تارة أخرى.. فهل تأتي مستقلةً بأحكام لم ترد في القرآن الكريم؟

أساسُ هذا الدين وركنه المتين: كتابُ ربّ العالمين وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم، فهما الذكر الذي تكفّل الله بحفظه، قال جل جلاله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:٩]، وبهما تُحفظ الأمّة من الضياع والضلال، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم حيث قال: (تَرَكْتُ فِيكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا، كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ)[2].

وللتأكيد على مكانة السنّة في الإسلام ومنزلتها في التشريع الإسلامي وأنّه لا غنى عنها مطلقًا، كان الحديث عن: «استقلال السنّة بالتشريع عن القرآن» تأصيلًا وتمثيلًا [3]، والذي سيكون في هذا المقال مختصرًا ومقتصرًا على أهم النقاط المتعلّقة بالمسألة.

## أوّلًا: علاقة السنّة بالقرآن:

المتتبّع لسنّة الرسول صلى الله عليه وسلم يجد أنّها لا تخلو مع كتاب الله عز وجل من ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن تكون: موافقة ومؤكّدة لما جاء في القرآن الكريم.

الحالة الثانية: أن تكون: مُبيّنة لما في القرآن من أحكام وتشريعات بنوع من أنواع البيان الخمسة، وهي: تفصيل المُجمل، وتوضيح المُشكل، وتخصيص العام، وتقييد المُطلق، والنسخ.

الحالة الثالثة: أن تكون قد أثبتت حكمًا لم يَرِد في

(١) المشرف العام على موقع (على بصيرة)، ماجستير في السنة وعلوم الحديث.

(٢) أخرجه المروزي في السنّة (٦٨)، والآجري في الشريعة (١٧٠٤)، والحاكم في المستدرك (٣١٨) و(٣١٩)، والبيهقي في سننه (٢٠٣٣٦)، وأصله في الصحيح.

(٣) هذا المقال ملخّص من رسالة علمية بالعنوان نفسه، حصل المؤلف بها على درجة الماجستير في الحديث وعلوم السنّة من جامعة أم درمان الإسلامية عام ٢٠٠٦، وفيها بيان القولين في المسألة، وأشهر القائلين بهما مع ذكر أقوالهم وأدلّتهم ومناقشتها، والأمثلة على السنّة المستقلّة.

القرآن الكريم؛ فلم ينصّ عليه ولا على ما يخالفه.

وعند النظر في الأمثلة التي ذُكرت لهذه الحالة نجد أنّها تنقسم إلى قسمين:

الأول: أن يأتي الحكم في السنّة دون أن يكون له ذكر في القرآن، فحينئذ تكون السنّة قد زادت هذا الحكم على ما في القرآن، فتكون الزيادة في هذا القسم: (زيادة تامّة)، وذلك مثل: تحريم لبس الذهب والحرير على الرجال.

الثاني: أن يأتي الحكم في القرآن، ثم تضيف السنّة إليه زيادة لم ترد فيه، فتكون السنّة موافقة للقرآن في إيراد ذلك الحكم، وزائدة عليه بإيراد تلك الزيادة، فتكون الزيادة في هذه الحالة: (زيادة جزئية)، وذلك مثل: زيادة التغريب في حدّ الزاني البِكر الوارد في السنّة، على الجلد الوارد في القرآن.

وفي كلا القسمين تكون السنّة قد أثبتت حُكمًا سكت عنه القرآن.

> **السنّة المستقلّة بالتشريع هي: ما سنَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لم يرد في القرآن، أو كان زائدًا عليه**

## ثانيًا: تعريف السنّة المستقلّة:

مما سبق يمكن تعريف السنّة المستقلّة بالتشريع بأنّها: ما سنَّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مما لم يرد في القرآن، أو كان زائدًا عليه.

وقد عبَّر الشافعي رحمه الله عن هذا النوع من السنّة بأنّها: «ما سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ليس فيه نصّ كتاب»[1].

وعبّر عنها ابن القيم رحمه الله بأنّها: «المُوجِبة لحكمٍ سكت القرآنُ عن إيجابه، أو مُحرِّمة لما سكت عن تحريمه»[2]. وسمّاها كذلك: السنّة الزائدة على القرآن[3]، والسنّة المُبتدَأة[4].

وأطلق عليها بعض المتأخرين تسميات متنوّعة مثل: السنّة المُؤسِّسة، والسنّة الجديدة، والسنّة المقرِّرة لحكمٍ سكت عنه القرآن. وهذه التسميات مُتقاربة؛ لإفادتها أنَّ الحكمَ جديدٌ زائدٌ على ما في القرآن، مُبتدأٌ من النبي صلى الله عليه وسلم ومُؤسَّس ومُنشَأ من سنّته. وقد سمّاها غالب مَن ذكرها من المتأخِّرين: (السنّة المستقلّة).

> **فما كان منها [أي السنّة] زائدًا على القرآن، فهو تشريع مبتدأ من النبي تجب طاعته فيه ولا تحل معصيته.**
>
> **ابن القيم رحمه الله**

## ثالثًا: موقف العلماء من السنّة المستقلّة:

السنّة المستقلّة عن القرآن لها ثلاث جهات:

الجهة الأولى: جهة وجود، بمعنى هل توجد سنّة زائدة على ما في القرآن أم لا؟ وهذه محلّ اتفاق بين العلماء، كما ذكر الشافعي رحمه الله[5].

الجهة الثانية: جهة صدور، بمعنى هل صدرت السنّة الزائدة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بشكل مستقلّ عن القرآن الكريم؟ أم أنّها راجعة في معناها إلى الكتاب؟

وهذه المسألة للعلماء فيها أقوال أربعة كما قال الشافعي رحمه الله[6]، وعند التأمّل في هذه الأقوال نجد أنّها ترجع في حقيقة الأمر إلى قولين:

القول الأول: أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم يسنُّ ما ليس فيه نصّ كتاب.

وبمعنى آخر: أنّ السنّة تستقلّ بتشريع الأحكام عن القرآن الكريم، وهذا التشريع ناشئٌ من الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه مع توفيقِ الله له للصواب، وإقرارِهِ بالوحي على ذلك، أو أنّه صادرٌ عن الوحي بنزول المَلَك عليه، أو أنّه صادر عن إلقاء تلك الأحكام في رَوْعِه، والخلاف بين هذه الأقوال خلاف تنوّع لاتضاد، فكلّها تنصّ على أنّ مصدر هذا التشريع هو

(١) الرسالة، ص (٩٨).
(٢) إعلام الموقّعين (٢/٢٨٨).
(٣) المرجع السابق.
(٤) الطرق الحكمية، ص (٩٣).
(٥) الرسالة، ص (٩٨-٩٩).
(٦) المرجع السابق.

الرسول صلى الله عليه وسلم، سواء كان بالوحي، أم بالاجتهاد المؤيّد بالوحي.

ويُنسب هذا القول إلى المحدّثين، وجمهور الأصوليين، وعليه عمل الصحابة رضي الله عنهم أ جمعين.

قال ابن القيم رحمه الله: «فما كان منها [أي السنّة] زائدًا على القرآن، فهو تشريع مُبتدأ من النبي صلى الله عليه وسلم تجب طاعته فيه، ولا تحل معصيته»[1].

وقال الشوكاني رحمه الله: «والحاصل أنّ ثبوت حُجّية السنّة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية، ولا يخالف في ذلك إلا مَن لا حظّ له في دين الإسلام»[2].

القول الثاني: أنّ ما سنّه رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس فيه نصّ كتاب فإنّه راجعٌ معناه إلى الكتاب، وليس شيءٌ من ذلك إلا وفي القرآن له أصل من قريب أو بعيد، أو أشار القرآن إليه تصريحًا أو تعريضًا. ومحصّلة هذا القول أنّ السنّة لا تستقل بتشريع الأحكام عن القرآن الكريم.

قال ابن برجان رحمه الله: «كلُّ حديثٍ ففي القرآن الإشارةُ إليه تعريضًا وتصريحًا، وما قال عن شيء فهو في القرآن، أو فيه أصله قَرُبَ أو بَعُدَ، فَهِمَه من فَهِمَه، وعمِهَ عنه مَن عَمِه»[3]، وقال الشاطبي رحمه الله: «السنّة راجعة في معناها إلى الكتاب، فهي تفصيل مُجمله، وبيان مُشكله، وبسط مُختصره... فلا تجد في السنّة أمرًا إلا والقرآن قد دلّ على معناه دلالة إجمالية أو تفصيلية»[4].

الجهة الثالثة: جهة احتجاج، بمعنى هل يُحتج بالسنّة الزائدة على ما في القرآن في حال صدورها مستقلةً أم لا؟

قرّر الشافعي رحمه الله بعد أن ذكر الأوجه الثلاثة للسنّة مع الكتاب -المؤكدة والمبينة والزائدة- أنّها حجّة كلّها، فقال: «وأيّ هذا كانَ فقد بيَّن الله أنّه فرض فيه طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولم يجعل لأحد من خلقه عذرًا بخلافِ أمرٍ عَرَفَه من أمر رسول الله، وأنْ قد جعلَ اللهُ بالناس كلِّهم الحاجةَ إليه في دينهم، وأقام عليهم حجته بما دلّهم عليه من سنن رسول الله معانيَ ما أراد اللهُ بفرائِضِه في كتابه؛ ليعلم مَن عَرَفَ منها ما وصفنا: أنّ سنّته إذا كانت سنّة مبيِّنة عن الله معنى ما أراد من مفروضِهِ فيما فيه كتاب يتلُونَه، وفيما ليس فيه نصّ كتاب أخرى؛ فهي كذلك أين كانت، لا يختلف حكم الله ثم حكم رسوله صلى الله عليه وسلم، بل هو لازم بكلِّ حال»[5].

لكن ما قرّره الشافعي -رحمه الله- عارضه جماعةٌ فقالوا بعدم الاحتجاج بالسنّة الزائدة على القرآن.

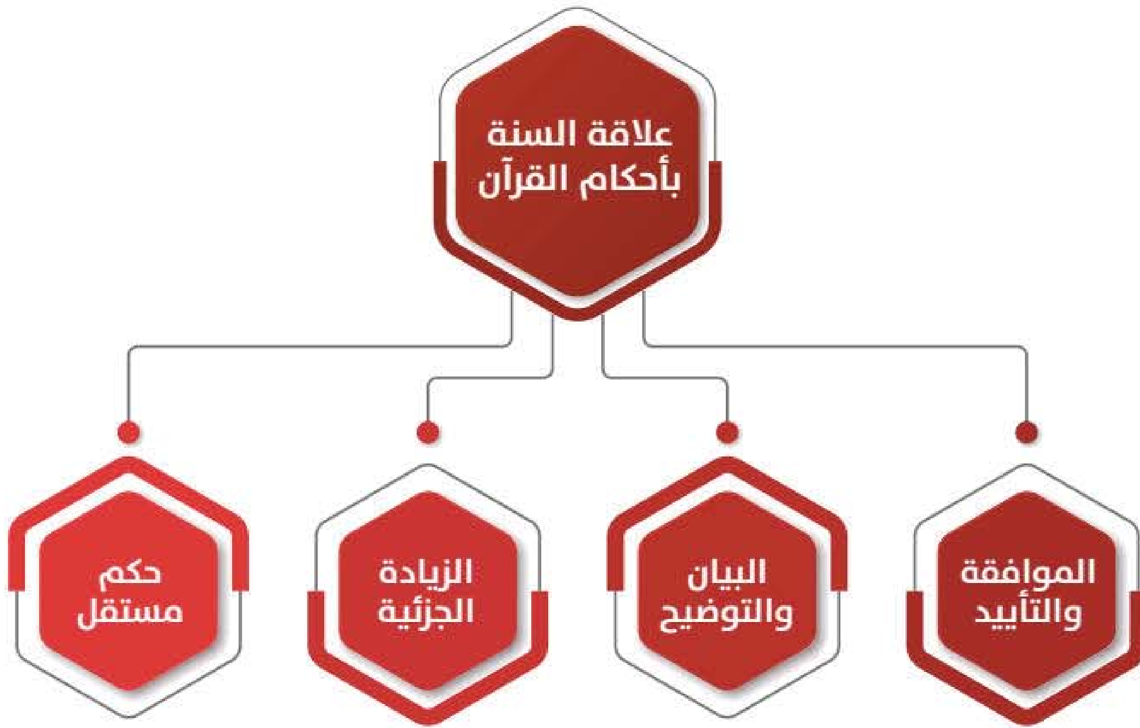
وسبب معارضتهم أمران:

أولهما: نظرهم إلى السنّة من جهة علاقتها بالقرآن، أي من جهة كونها زائدة على القرآن، لا من جهة كونها سنّة صادرة عن النبي صلى الله عليه وسلم المعصوم، المؤيد بالوحي، المتَّبَع -بأمر الله- في كلّ ما يصدر عنه من تشريع، فهم بذلك قد فرّقوا بين قسمي الوحي المنزّل من عند الله.

الأمر الثاني: اعتبارهم أن السنّة ظنّية الثبوت فلا تقوم بها حجّة حتى تستند إلى دليل قطعي، وهو القرآن الكريم. وبالتالي فالسنّة الزائدة على القرآن لا تقوم بها حجة حتى يؤيّدها قرآن، فإذا لم يكن كذلك فلا حجة فيها!! يقول الشاطبي رحمه الله: «وقد تقدّم في أول كتاب الأدلة أنّ السنّة راجعة إلى الكتاب وإلا وجب التوقُّف عن قبولها»! وما ذكره قبل ذلك هو قوله: أنّ كلّ دليل شرعي إما أن يكون قطعيًا أو ظنّيًا، فإن كان قطعيًّا: فلا إشكال في اعتباره... وإن كان ظنّيًا: فإمّا أن يرجع إلى أصلٍ قطعيّ أو لا، فإن رجع إلى أصل قطعي فهو معتبر أيضًا، وعليه عامة أخبار الآحاد. وإن لم يرجع إلى أصل قطعي وكان معارضًا لأصل قطعي فمردود بلا إشكال، لأنّه مخالف لأصول الشريعة، وليس له ما يشهد بصحته.

وإن لم يرجع إلى أصل قطعي ولم يكن معارضًا لأصل قطعي فهو في محلّ النظر، فقد يقال: لا يُقبل،

(١) إعلام الموقعين (٢/٢٨٨).
(٢) إرشاد الفحول، ص (٦٨).
(٣) البحر المحيط، للزركشي (٦/٨).
(٤) الموافقات (٤/٩).
(٥) الرسالة، ص (١٠٠-١٠١).




لأنّه إثبات شرع على غير ما عُهِد في مثله[1].

فهذا الكلام يفيد التوقّف في قبول السنّة الزائدة على القرآن زيادة تامة إذا لم يكن لها أصل في القرآن، وبالتالي عدم الاحتجاج بها.

أمّا إن كانت السنّة الزائدة على القرآن بزيادة جزئية، فيضاف إلى ذلك اعتبار الزيادة نسخًا عند بعض أهل العلم، ويترتّب على ذلك ردّها كذلك؛ لأنّ السنّة لا تنسخ القرآن عندهم.

> **السنّة وحي من عند الله، والرسول صلى الله عليه وسلم صاحب سلطة تشريعية منحه الله عز وجل إياها، فله حقّ التحليل والتحريم، والله أمر باتباعه وأوجب طاعته مطلقاً.**

والجواب عمّا ذُكر من اعتراض على حجّية السنّة المستقلّة كما يلي:

الأول: أنّ الأدلة التي ذكرها أهل العلم في كتبهم في الاحتجاج بالسنّة، من القرآن والسنّة والإجماع وعصمة الرسول صلى الله عليه وسلم، تشمل كل سنّة صادرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، سواء أكانت مؤكّدة أم مبيّنة أم زائدة، ولا دليل على التفريق بينها بحال.

الثاني: أنّ السنّة الزائدة هي تشريع مُبتدأ من النبي صلى الله عليه وسلم، ولو كان رسول الله لا يُطاع في هذا القسم لم يكن لطاعته معنى، ولو لم تجب طاعته إلا فيما وافق القرآن لا فيما زاد عليه: لم يكن له طاعة تختصّ به[2].

الثالث: أنّه لو ساغ ردُّ كل سنّة زائدة على القرآن لبطلت سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها إلا سنّة دل عليها القرآن»[3].

الرابع: أنّ صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الموافقات (٣/١١-١٨) ملخّصًا. والشاطبي رحمه الله بعد أن قرّر هذا: ذكر كلامًا كثيرًا يفيد الاحتجاج بالسنّة وإن لم تستند إلاّ إلى الأمر العامّ بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] ! إلّا أنّ الذين جاؤوا من بعده أساؤوا فهم مُراده، وجعلوا من كلامه مُستَندًا لردّ كثير من الأحاديث وترك الاحتجاج بها.

(٢) إعلام الموقعين، لابن القيم (٢/٢٨٩).

(٣) المرجع السابق (٢/٢٩٠).

وجمهور التابعين والأئمة قد احتجّوا بالسنّة الزائدة على القرآن وعملوا بها في أمثلة كثيرة على الحصر[١].

الخامس: أنّ السنّة الزائدة على القرآن زيادةً جزئية لا تعتبر نسخًا على الصحيح من أقوال العلماء؛ فالزيادة لا يحصل بها رفع ولا إزالة، بل فيها تقرير الحكم المزيد عليه وتثبيته، كما أنّ النسخ لا يُحكم به إلا عند تعذّر الجمع بين الدليلين المتعارضين في الظاهر، والجمع في مسألة الزيادة على النصّ ممكن وغير متعذّر[٢].

> **السنّة المستقلّة هي تشريع مُبتدأ من النبي صلى الله عليه وسلم، ولو كان رسول الله لا يُطاع في هذا القسم لم يكن لطاعته معنى، ولو لم تجب طاعته إلا فيما و افق القرآن لا فيما زاد عليه: لم يكن له طاعة تختصّ به.**

## رابعًا: الأدلّة على استقلال السنّة بالتشريع:

يدلُّ لاستقلال السنّة بالتشريع جملة من الأدلة السمعية، والأدلة العقلية، والاستقراء.

### ١- الأدلة السمعية:

وتدور هذه الأدلة حول أربعة محاور:

المحور الأول: الاستدلال بأنّ السنّة وحي من عند الله، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم:٣-٤]؛ فكلّ ما صدر عنه صلى الله عليه وسلم من أمور الدين من قول أو فعل أو تقرير فهو وحي. وإذا صحَّ ذلك -وهو صحيح لا شك فيه- فيلزم منه أن تكون السنّة مصدرًا مستقلًّا بذاته للأحكام، ولا يلزم أن تُرَدَّ إلى القرآن الكريم؛ لأنّ مصدرهما معًا من عند الله تبارك وتعالى.

المحور الثاني: الاستدلال بأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم صاحب سلطة تشريعية منحه الله سبحانه وتعالى إياها، فله حقّ التحليل والتحريم، وقد نصّ القرآن الكريم على هذا الحق للرسول صلى الله عليه وسلم في أكثر من موضع، وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحقَّ الممنوح له، وردَّ على من نازعه ثُبوت هذا الحق له، وقام بمقتضى ذلك بالتحريم والتحليل من نفسه. ومن هذه الأدلّة:

أ- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧]؛ فالآية دالَّة على أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يأمر وينهى، ويحلّ ويحرّم؛ فقد نسب الله سبحانه وتعالى فعل ذلك كلّه له مستقلًّا، وجعله من صفاته وخصائصه، ومدح المؤمنين به باتباعهم له.

ب- قوله صلى الله عليه وسلم: (ألا إني أُوتِيتُ الكتابَ ومِثلَه مَعه، ألا يُوشِك رجل شَبعانُ على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وَجدتم فيه مِن حَلالٍ فَأَحِلُّوه، وما وجدتم فيه من حرام فَحَرِّموه، ألا لا يَحِلُّ لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كُل ذي ناب من السَّبع، ولا لُقَطة مُعاهَد، إلا أن يستغنيَ عنها صاحبها، ومن نَزل بقومٍ فعليهم أن يُقْرُوه، فإن لم يُقْرُوه فله أن يُعقِبَهم بمثل قِراه)[٣].

ففي الحديث دلالة على أنّ الشريعة تتكون من الأصلين معًا: الكتاب والسنّة، وأنّ في السنّة ما ليس في الكتاب، وأنّه يجب الأخذ بما في السنّة من الأحكام كما يُؤخذ بما في الكتاب، وأنّ الظاهر من قوله صلى الله عليه وسلم: (مثل القرآن) ما كان مستقلًّا عنه، وإن سلّمنا شموله لغيره أيضًا فلا ضير في ذلك، حيث إنّه أثبت أنّ الجميع من عند الله.

> **الصحابة وجمهور العلماء على أنّ السنّة تستقل بتشريع الأحكام، وأنّ مصدرها هو الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه، سواء كان بالوحي أم بالاجتهاد المؤيّد بالوحي.**

المحور الثالث: الاستدلال بالآيات التي تأمر باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وتوجب طاعته، دون تفريقٍ بين ما كان من ذلك داخلًا في معنى القرآن وراجعًا إليه، وما كان مستقلًّا عنه، وذلك كقوله تعالى:

---

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم (٢/٢٨٩).

(٢) ينظر: معالم أصول الفقه عند أهل السنّة والجماعة، محمد بن حسين الجيزاني، ص (٢٦٥).

(٣) أخرجه أبو داوود في سننه (٤٦٠٤)، وأحمد في مسنده (١٧١٧٤) عن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه.

﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[المائدة:٩٢]، وقوله: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[النساء:٨٠]

المحور الرابع: الاستدلال بطريقة تعامل الصحابة -رضوان الله عليهم- مع السنّة حيث إنّهم جعلوها مصدرًا مستقلًّا للأحكام تأتي مع كتاب الله سبحانه، دون النظر -أو حتى مجرّد التفكير- في كون ذلك الحكم المستمدّ من السنّة راجعًا إلى القرآن الكريم أم لا، ومن ذلك: أنّ أمية بن عبد الله بن خالد بن أسِيدٍ قال لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إنّا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن، ولا نجد صلاة السفر في القرآن! فقال له ابن عمر: «ابنَ أخي، إنّ الله عز وجل بعثَ إلينا محمدًا صلى الله عليه وسلم ولا نَعلم شيئًا، فإنما نفعل كما رأينا محمدًا صلى الله عليه وسلم يفعل»[1].

## ٢- الأدلة العقلية:

أ- أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم معصوم عن الخطأ في تبليغ رسالة ربه عز وجل سواء كانت كتابًا منزلًا أو غير ذلك. فلو أنّا فرضنا أنّ الشرع كلّه جاء عن طريق السنّة ولم يكن هناك كتابٌ منزّل؛ لقامت الحجّة على الناس بها، وللزمهم اتباعها، فإذا وُجِدَ الكتاب فلا يسلبها وجودُه ما كانت صالحةً له، فيصحُّ بذلك استقلالها عنه بالتشريع[2].

ب- أنّ مصدر السنّة المستقلّة هو نفسه مصدر السنّة المؤكِّدة والمبيِّنة وهو: رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلّها تخرج من مشكاة واحدة، ولو لم يجُز استقلالها لم يجُز تأكيدها ولا تبيينها لما في الكتاب؛ لأنّ التأكيد فرع الصلاحية للتأسيس، وفي التبيين نوع استقلال في تفاصيل الحكم المبيَّن، ولأنّ كل ما يفرض مانعًا من الاستقلال يكون مانعًا من البيان[3].

ج- لو فرضنا أنّ الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يسنَّ تشريعاتٍ ليست في كتابه، ثم قال للناس: ما جاءكم من هذا الرسول فهو شرع فاتبعوه فيه وأطيعوه، فلا يلزم من ذلك محالٌ لذاته، ولا يفضي إلى محالٍ أو مفسدةٍ لغيره، وما كان كذلك فسبيله الجواز.

د- أنّه لا يوجد مانع شرعي ولا عقلي من أن تستقلّ السنّة بالتشريع.

## ٣- الدليل من الاستقراء:

فقد دلّ الاستقراء على أنّه قد جاء في السنّة أحكام مستقلّة عن القرآن الكريم لا يربطها بأحكامه رابط، ولو لم يكن جائزًا استقلالها بالتشريع عن القرآن لما وقع، بل إنّ هذه الأحكام التي استقلّت بها السنّة إن لم تكن أكثر من أحكام القرآن لم تنقص عنها[4].

> **الاستقراء يدلّ على أنّ في السنّة أحكامًا مستقلّة تماماً عن القرآن الكريم، ولو لم يكن استقلالها بالتشريع عن القرآن جائزًا لما وقع.**

## خامسًا: أمثلة للسنّة المستقلّة بالتشريع:

الأمثلة على السنّة المستقلّة بالتشريع –لا سيما فيما يتعلق بالعبادات والمعاملات– كثيرة جدًا، وقد تقدّمت الإشارة إلى بعضها، وسأكتفي بذكر ثلاثة أخرى مع بيان وجه استقلالها عن القرآن الكريم:

## ١- تشريع الأذان والإقامة:

جاء تشريع الأذان والإقامة في السنّة بإقرار النبي صلى الله عليه وسلم لرأي عمر رضي الله عنه بسنّ النداء للصلاة، ثم بإقراره لعبد الله بن زيد رضي الله عنه على رؤياه وما جاء فيها من ألفاظ الأذان والإقامة، وقوله: (إنّها لَرؤيا حقٌّ إن شاء الله)[5].

فإن قيل: إنّ الأذان قد جاء في القرآن، في الآية الثامنة والخمسين من سورة المائدة، والآية التاسعة من سورة الجمعة، فالجواب: أنّ الحديث دال على أنّ ابتداء الأذان جاء بالسنّة، ثم جاء القرآن بإقرار ذلك، فيكون القرآن موافقًا للسنّة ومؤكّدًا لها لا العكس! فالراجح أنّ تشريع الأذان كان في العام الأول للهجرة،

(١) أخرجه النسائي (١٤٣٤) وابن ماجه (١٠٦٦)، وأحمد (٥٣٣٣).
(٢) حجية السنّة للدكتور عبدالغني عبدالخالق، ص (٥٠٧-٥٠٨).
(٣) المصدر السابق، ص (٥٠٨).
(٤) إعلام الموقعين، لابن القيم (٢/ ٢٩٠).
(٥) أخرجه أبو داوود (١/ ٣٧١) برقم (٤٩٩)، وأحمد (٢٦/ ٢٠٤) برقم (١٦٤٧٨).

والمائدة من آخر القرآن نزولًا، ونزول سورة الجمعة كان متأخّرًا كذلك[1].

### ٢- تحريم الجمع بين المرأة وعمّتها، أو المرأة وخالتها في النكاح:

ورد في القرآن تحريم الجمع بين الأختين، وقد جاء في السنّة زيادة على ما في القرآن: تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تُنْكَحُ المرأة على عمتها، ولا على خالتها)[2].

فالحديث قد استقلّ بإيراد هذا الحكم زيادةً على ما في القرآن.

فإن قيل: إنّ السنّة لم تستقل بذلك؛ لأنّ غاية ما في الأمر القياس على ما في القرآن من تحريم الجمع بين الأختين، وعلّته: مخافة قطيعة الرحم التي قد تحصل بسبب ما يكون بين الضرائر، كما في حديث ابن عباس: (إنّكم إن فعلتم ذلك قطّعتُم أرحامكم)[3].

فالجواب: إنّ القياس ههنا خفي، فلا يُعلم إلا عن طريق الوحي، ولو لم يرِد في السنّة لما حَرُم الجمع بين المرأة وعمّتها، والمرأة وخالتها! ولو صحّ القولُ بالقياس: للزم منه القولُ بتحريم الجمع بين المرأة وسائر قريباتها -كابنة عمّها أو ابنة خالها- لذات العلّة، ولكنّ الصحيح أنّه لا يحرُم، فالصواب أن يقال: إنّ ما ورد في السنة جاء استقلالًا عن القرآن.

### ٣- حدّ شارب الخمر:

ما جاء في القرآن بشأن الخمر: تحريمها والتحذير منها، وقد جاءت السنّة بتشريع الحدّ على شارب الخمر وليس في كتاب الله، فالحدود توقيفية لا يصحّ فيها إلا النصّ، وقد ورد النصّ في السنّة؛ فكان ذلك استقلالًا منها بتشريعه. فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنّه قال: (جَلَدَ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم أربعين)[4].

> **من الأمثلة على السنّة المستقلّة بالتشريع: تشريع الأذان والإقامة، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو المرأة وخالتها في النكاح، وحدّ شارب الخمر**

### خاتمة:

القول باستقلال السنّة بالتشريع هو الأليق بمقام سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، بأن يكون صاحب سلطة تشريعية، وأن تكون أقواله وأفعاله وتقريراته وأخلاقه -التي هي مَرضيّة من رب العالمين- محطّ أنظار المسلمين ومحلّ قدوتهم، وهذا يتناسب مع ما في القرآن من الآيات التي تأمر بطاعته مطلقًا، وتنفي خيار المؤمنين به في أمرهم في مقابل أمره، فالطاعة الحقيقية لا تظهر بوضوح إلا في اتباعه صلى الله عليه وسلم في هذا القسم من السنّة.

كما أنّ القول باستقلال السنّة بالتشريع يقي المسلمين من الوقوع في مخالفة هدي النبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد يؤدّي القول بعدم استقلالها إلى ترك العمل ببعض السنّة، أو التساهل في الأخذ بها؛ لأنّها زائدة على ما في القرآن! أو لِما يتوُهم من مخالفتها له.

وهو يغلق الباب على المتربّصين بالسنّة الدوائر، ويدفع عنها طُعون أهل الزيغ والزنادقة، وشبهات المغرضين والمتشكّكين. فالخلاف في المسألة عندما يخرج إلى أهل الزيغ والضلال يتّخذونه مطيّة لمهاجمة السنّة والكيد لها والطعن فيها.

---

(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي (٣/٣٣٩).
(٢) أخرجه مسلم (٣٧-١٤٠٨).
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١٩٣١).
(٤) أخرجه مسلم (٣٨-١٧٠٧).

# عقبات في طريق وحدة الصف وجمع الكلمة

أ. عاصم الحايك [1]

وحدة صف المسلمين واجتماعهم مطلب شرعي، وهدف سامٍ، ينبغي أن يعمل الجميع للوصول إليه، والحفاظ عليه.. قد يشوش على هذه الوحدة بعض العقبات، التي ينبغي التعرف عليها؛ لتوقيها ابتداء، والعمل على علاجها حين وقوعها.

تمثّل وحدة الصف الإسلامي في ممارساتها الواقعية وتطبيقاتها العملية تحديًا جليَّ الملامح في مسيرة العمل الإسلامي، ليمثّل ذلك الامتحان الفعلي، والمحك الحقيقي لتطبيق فقه الائتلاف وممارساته في الواقع الدعوي.

وإن خوض هذا التحدي في الميدان العملي مُيَسرٌ لمن أراد أن يتخذ من شريعة الله تعالى منهاجًا لحياته العملية، ونبراسًا يستضيء به في مسيرته الدعوية، جاعلاً من قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢] شعارًا له.

وأما من أراد أن يتخذ من إرث التنازع الثقيل ومقولات الرجال طريقةً لمسلكه، فسيخرج من معترك هذا التحدي بهزيمة جماعية تضاف لذلكم الموروث في مراحله الماضية.

وسنعرج في هذا المقال على بعض العقبات التي تقف عائقًا أمام مسيرة وحدة الصَّفِّ ضمن إطار أهل السنة والجماعة، وهذا ذكرٌ لبعضها:

## أولاً: ادعاء اختزال الحقّ وحصره ضمن كيانٍ معين:

إن منشأ ادعاء اختزال الحق يعود في واقع الأمر إلى عوامل التنشئة التربوية الخاطئة، وطرائق التفكير في التعايش مع الآخرين، وهذه العوامل تتمثل في صورٍ متعددة كالتعصب للمذاهب والمدارس، والتشبث بآراء الرجال، والتربية على المفاهيم الحزبية، وضيق الأفق العلمي في فهم الأُطر الصحيحة لمبدأ الولاء للإسلام وأهله، وذلك مِن خلال رفع الولاءات الضيقة، والتي تُرسخ في النفوس التبعيّة العمياء، دون اعتبار للأسس الشرعية.

وإنّ التربية على ثقافة اختزال صحة المنهج سواءً في الإطار العلمي أو التوجه الفكري، مما يعمّق ثقافة التعصب لدى الجيل المسلم، والذي من جناياته التجاهل التام للتنوع المحمود والمشروع للجهود العلمية والدعوية للتيارات الأخرى العاملة في الساحة الإسلامية، وعدم الالتفات إلى دوائر الخلاف المعتبر فيما بينها.

(١) باحث شرعي.

> **إنّ التربية على اختزال صحة المنهج سواءً في الإطار العلمي أو التوجه الفكري، يعمّق ثقافة التعصب لدى الجيل المسلم، والذي من جناياته التجاهل التام للتنوع المحمود لجهود التيارات الأخرى العاملة في الساحة**

إنّ التصور المستقبلي لوحدة الصف المسلم والتي تتطلب استكمال الصورة الذهنية الإيجابية لدى المهتمين بالشأن الدعوي؛ يقتضي تكامل الرؤى، واستنهاض همم شباب السّنة، وتحفيزهم للعمل الجماعي المتكامل، وتوسيع دائرة المنظومات الضيقة، والتي أسهمت في تفريق الكيان المسلم وتشتيت شمله؛ من خلال حصر الناس في الإطار الحزبي، ورفع شعار اختزال الحق.

وإنّ من المعوّقات التي تخرج على الساحة عند المبادرة والتنادي إلى وحدة الصف وجمع الكلمة: بروز المحددات الضيقة، والتي يدّعي كلُّ تيار أنها من مميزاته، كمحدد الأقدمية في الميدان الدعوي، أو المناداة بصحة المنهج، دون مراعاةٍ لأولويات المرحلة وخطورتها، مما يجعل تلكم المبادرات تدخل غرفة الإنعاش، وكلما حلّت بالأمة الإسلامية أزمة تنادى المخلِصون لإنعاش ما تبقى من هذه المبادرات!

فبين تلك المحددات تفرقت الأمة وتحزبت، وصدق الله، ومَن أصدقُ من الله قيلاً: ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

### ثانيًا: مفهوم المثالية المفرطة في وحدة الصف:

إنّ المناداة بوحدة الصف، واجتماع الكلمة، ضمن إطاره الشرعي العام، قد يتم تقويضه في مهده بسبب رفع سقف التوقعات، والركون إلى المثالية الزائدة، والقاتلة للإبداع في أي بيئة عملية، وإنّ مثل هذه الحيثيات تتطلب وجود بيئة تتسم بالمرونة وليس المثالية، دون القفز والتجاوز لثوابت المنهج الإسلامي، ولعل البعض لا يقبل بتوحيد الصفوف، ولا يقتنع باتحاد الكلمة، دون الاتفاق على جميع الجزئيات والفرعيات، ولا يكتفي بالأصول والكليات العامة، والثوابت الشرعية.

وفي هذا السياق يوضح ابن القيم المنهجية الشرعية في التعامل مع هذا الجانب حيث يقول رحمه الله: «عادتنا في مسائل الدين كلها دقها وجلها أن نقول بموجبها، ولا نضرب بعضها ببعض، ولا نتعصب لطائفة على طائفة، بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق، ونخالفها فيما معها من خلاف الحق، لا نستثنى من ذلك طائفة ولا مقالة»[1].

وإنه لجدير بالعاملين للإسلام توحيد الصفوف والقلوب، ولو لم تجتمع العقول والآراء، وذلك من خلال توسيع دائرة المتفق عليه، وجعلها القاعدة التي يتم الانطلاق منها في العمل المشترك، ضمن خطوط متوازية لتحقيق الأهداف المشتركة والمصالح الشرعية، مع العمل الدؤوب على دفن هوة الخلاف، وبناء جسور الثقة، ولعلهم يدركون أنّ (كَدر الجماعة خيرٌ مِن صفو الفُرقة)[2]، فالاجتماعُ ولو مع وجود النقص وبعض السلبيات، خير من التفرق ولو مع وجود الإيجابيات.

### ثالثًا: الفجوة بين التنظير والتطبيق في ممارسات وحدة الصف:

يدرك المتابع للساحة الإسلامية وجود فجوة عميقة بين التنظير والواقع المأمول لمفهوم وحدة الصف، وهذه الفجوة تبدو جليّة وواضحة للعيان من خلال الممارسات السلوكية والثقافية، فالتنظير وتقعيد القواعد وتأطير معالم الخلاف أمرٌ يسير، لكن الإشكاليات تظهر عند التطبيق العملي لفقه الائتلاف وجمع الكلمة، حيث تحذو كثير من النفوس إلى ممارساتٍ تتسم بالبغي في قضايا لا تعدو أن تكون ذات منحى اجتهادي، وسيقتصر المقال على رسم الخطوط العريضة لهذه الظاهرة الثقافية.

إن سورة الصف والتي أسست لمنهجية واضحة لوحدة الصف المسلم ومرتكزاته، نجدها وكأنها تخاطب أولئك القوم الذين ما فتئوا أن يضعوا الآخرين في قفص الاتهام لزعزعة الصفوف، متناسين دورهم الرئيس والمحوري في مفارقة جبل الرماة، لجمع المغانم الحزبية والشخصية والمشيخية!

لنتأمل في مطلع السورة كيف أن الوحي خاطب الفئة المؤمنة المقاتلة بخطاب قوي اللهجة، صريح البيان، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم ص (٥١٦).
(٢) البيان والتبيين، للجاحظ (١/٢١٨).

بعض العقبات في طريق وحدة الصف الإسلامي

ادعاء اختزال الحقّ وحصره ضمن كيانٍ معين

المثالية المفرطة في فهم وحدة الصف الإسلامي

الفجوة بين التنظير والتطبيق في ممارسات وحدة الصف

مَـا لا تَفْعَلُـونَ ۝ كَـبُرَ مَقْتًـا عِنْـدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُـوا مَـا لا تَفْعَلُـونَ﴾ [الصف: ٢-٣]، وكأن السياق القرآني يخاطب أولئك القوم الذين نصّبوا أنفسهم دعاةً لجمع الكلمة، ووحدة الصف، ثم انتهجوا نهجاً مغايراً لما كانوا يتفوهون به، ويدعون الناس إليه، أو أنهم بدّلوا وحرّفوا الكلم عن مواضعه، فاختزلوا الوحدة الإسلامية والأخوة الإيمانية من خلال توظيفها ضمن الأطر الحزبية والمشيخية، وهذ واقعٌ مرير لا تكاد العين تخطئه، وكأننا بهم تمثلوا في واقعهم بقول الشاعر:

بَحَثْتُ عَنِ الأَدْيَانِ فِي الأَرْضِ كُلِّهَا
وَجُبْتُ بِلادَ اللهِ غَرْبًا وَمَشْرِقَا
فَلَمْ أَرَ كَالإِسْلامِ أَدْعَى لأُلْفَةٍ
ولا مِثْلَ أَهْلِيهِ أَشَدَّ تَفَرُّقَا

> **كثير من العقبات في طريق وحدة الصف سنتجاوزها إذا اعتبرنا أن معقد الولاء إنما هو للأمة المسلمة فقط**

إننا سنتجاوز هذه العقبة الكبرى في حياتنا العملية إذا اعتبرنا أن معقد الولاء إنما هو للأمة المسلمة فقط، وامتثلنا ما ذكره الله تعالى في ختام سورة الصف بخطاب قرآني للفئة المؤمنة، حيث يقول تبارك وتعالى:﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا كُونُـوا أَنْصَـارَ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

إنَّ من يجعل من نفسه نصيرًا لله تبارك وتعالى، فإن جميع الحُجب والحواجز بينه وبين إخوانه تتساقط تباعًا، ليقف معهم كالبنيان المرصوص، يجاهد بسنانه ولسانه، نصرة لدين الله تعالى، راجيًا من الله تعالى أن يحقق له ما تحبه نفسه وتصبو إليه، كما في قوله تعالى:﴿ وَأُخْـرَىٰ تُحِبُّونَهَـا نَـصْرٌ مِّـنَ اللَّهِ وَفَتْـحٌ قَرِيـبٌ وَبَـشِّرِ الْمُؤْمِنِـينَ﴾ [الصف: ١٣].

وأما من أبى أن يستظل في ظلال الوحي، فسيبقى متخندقًا خلف الأُطر الحزبية، والتجمعات المشيخية، جاعلاً من قناع العمل الجماعي أو المؤسسي ستارًا يخادع به نفسه، ليمرّر من خلاله ما يمليه عليه هواه، ليحافظ على المكانة المشيخية أو التموضع المؤسسي.

وفي ذات السياق يجدر بنا أن نعرج على خللٍ آخر: أحدث جفوةً بين القلوب، ونفرةً بين النفوس، وهذا الخلل يتمثل في الفجوة السلوكية بين الجانب النظري؛ والواقع العملي؛ للآداب الشرعية بين المؤمنين وممارساتها الفعلية، وقد نتج عنها بُنية مؤسسية واجتماعية هشة، أضعفت الأواصر، وشتت الشمل.

وهذا الجفاء السلوكي يمكن تأطيره ضمن إطارين اثنين حتى تكتمل الصورة، وتتضح الرؤية:

## الإطار الأول: اختلال موازين شعيرة الولاء للمؤمنين:

إن مَرد اختلال ميزان هذه الشعيرة العظيمة يعود في واقع الأمر إلى تغليب فئامٍ من الناس جانبَ البراء من المخالفين، على حساب شعيرة الولاء للمؤمنين، فرجحت لديهم الكفة، واختلّ بهم الميزان، لما استفردت عقولهم بأحاديث البراء دون الالتفات العملي إلى النصوص الشرعية الدالة على موالاة المؤمنين كما في قوله تعالى:﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقوله تعالى:﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥ ]، وكما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:» (المسلمُ أخو المسلم، لا يَظلِمهُ، ولا يَخذلُه، ولا يَكذِبُه، ولا يَحقِرُه[1]، فموالاة المؤمنين ومحبتهم يسهم إيجابيًا في تعميق أواصر المودة فيما بينهم؛ لأن «التَّحاب يوجب التقارب والاتفاق، والتباغض يوجب التباعد والاختلاف»[2].

## الإطار الثاني: عدم خفض الجناح ولين الجانب بين المؤمنين:

إن جفاء التعامل وجفاف المعاملة بين أخوة المنهج والدين، وعدم لين الجانب فيما بينهم، وخفض الجناح لهم، من المسببات لفرقة الصف المسلم، وهنا ندرك أهمية الوصية النبوية عندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذًا وأبا موسى الأشعري إلى اليمن فقال لهما: (تَطَاوعَا ولا تختلفا[3].

إن قاعدة (التطاوع وعدم الاختلاف) درس نبوي، ومنهجٌ إسلامي متكامل في مسيرة الدعاة إلى الله تعالى، لأن (غالِب المصالح لا يتمّ إلا بالاتفاق، ومتى حصل الاختلاف فات) كما قرر ذلك النووي[4].

> **قاعدة (التطاوع وعدم الاختلاف) وصية نبوية، ومنهجٌ إسلامي متكامل في مسيرة الدعاة إلى الله تعالى**

وقد نبَّه الحافظ في الفتح عند شرحه لهذا الحديث إلى أهمية قاعدة التطاوع فقال: «أي توافقا في الحكم ولا تختلفا؛ لأن ذلك يؤدي إلى اختلاف أتباعكما، فيفضي إلى العداوة ثم المحاربة»[5].

وفي نظرة سريعة لتقييم نجاح العلاقات الاجتماعية ومتانتها في أي كيان، نجد أن ثمّة علاقة طردية واضحة المعالم بين تماسك العاملين في الكيانات ذات النمط المؤسسي، وبين تطبيق هذه القاعدة.

ولنتذكر أمر الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، ولو أدركنا المغزى الحقيقي لهذه الآية الكريمة؛ لوجدنا جمال هذا الخطاب الرباني للنفس البشرية المؤمنة ينعكس في حياتنا العملية، من تآلف للقلوب وصفاء للنفوس.

> **ثمة علاقة طردية واضحة المعالم بين تماسك العاملين في الكيانات ذات النمط المؤسسي، وبين تطبيق قاعدة التطاوع**

إننا في حاجة ماسّة إلى أن نتجاوز هذه العقبات، ونتخطى تلكم الحواجز، من خلال تفعيل المشتركات بين أطياف العمل الإسلامي، والتكامل التام بين الجانب النظري والعملي للآداب والسلوكيات؛ وذلك بالقيام بحقوق الأخوة الإيمانية وواجباتها؛ وحفظ عرى المودة والمحبة والألفة، من خفض الجناح، ولين الجانب، والتطاوع، وممارسة ذلك في الحياة الاجتماعية كالإصلاح والصلح، أما الإصلاح فحتى تتآلف القلوب، وتسكن النفوس، وأما الصلح فقد تقرر في نصوص الوحيين أن «الخلاف شر»[6] ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

---

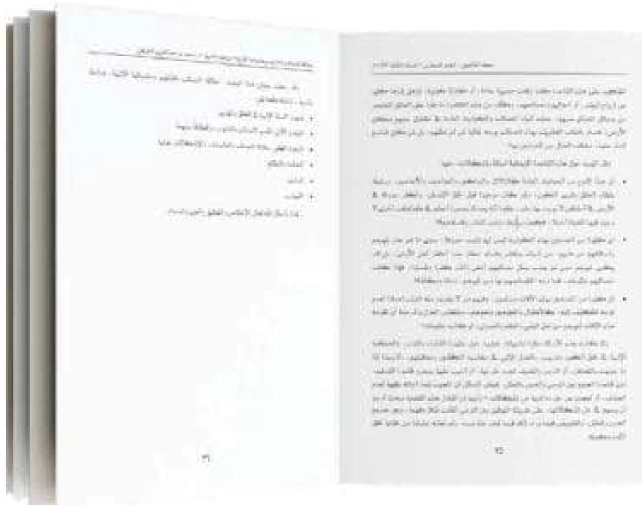
(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).
(٢) قاعدة في المحبة، لابن تيمية ص (١٩٨).
(٣) أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣).
(٤) شرح صحيح مسلم (١٢/٤١).
(٥) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني ( ١٣ / ١٧٣ ) .
(٦) أخرجه أبوداود (١٩٦٠)، وهو من كلام عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عندما صلى في منى خلف عثمان أربعًا، فقيل له: عتبت على عثمان ثم صليت أربعًا؟ فقال: الخلاف شر.

## قراءة في بحث

# علاقة المصائب بالذنوب وعقوباتها الإلهية

### للدكتور سعود العريفي

د. معن عبد القادر[1]



يتناول البحث مسألة الربط بين ما يصيب المكلفين من مصائب دنيوية وكوارث، وبين ما يقترفونه من مخالفات شرعية، وذلك باستعراض النصوص المؤصِّلة لهذا الترابط، وتحرير دلالات هذه النصوص، والتوفيق بين هذه العلاقة الإيمانية الغيبية، وبين المعلوم شرعًا وحسًا، من السُّنن الإلهية، والنواميس الكونية، التي يسير الله عليها مخلوقاته، كما يعتني البحث بحل الإشكالات والشبهات الواردة على العقيدة الإسلامية من هذه الجهة.

### وصف البحث:

يقع البحث في ٥٣ صفحة، وهو بحثٌ محكم ضمن مجلة تأصيل، العدد السادس – سنة ١٤٣٣هـ.

### نبذة عن الباحث:

الدكتور سعود بن عبد العزيز العريفي: أستاذ جامعي، وأكاديمي، في قسم العقيدة بجامعة أم القرى.

### محتوى الكتاب:

يقع البحث في تمهيد، وفصلين، وخاتمة.

التمهيد: في السنة الإلهية في الخلق والتدبير.

الفصل الأول: في تقدير المصائب، والذنوب، والعلاقة بينهما.

الفصل الثاني: في علاقة المصائب بالعقوبات، والإشكالات حولها.

---

(١) أكاديمي وكاتب في قضايا التربية والفكر.

## قراءة في البحث:

تقرّر في العقيدة الإسلامية أن المصائب التي يصاب بها الناس فرادى وجماعات إنما هي بما كسبت أيديهم وبما اقترفوه من الذنوب، وجرت عادة بعض الواعظين التأكيد على هذه القاعدة كلما وقعت مصيبة عامة أو كارثة كونية تزهق معها الأرواح أو تتلف الأموال أو تفسد على الناس معاشهم.

فما هي عقيدة المسلمين في المصائب؟ وما درجة ارتباطها بالذنوب؟ وهل تكون المصائب عقوبات؟ وكيف تكون كذلك وهذه المصائب العامة كالزلازل والبراكين والعواصف والأعاصير لها أسبابها المادية المعروفة؟ وقد كانت موجودة قبل خلق الإنسان، فكيف ترتبط بذنوب البشر وفسادهم؟ وإذا كانت المصائب عقوبات، فلماذا تصيب أناسًا ولا تصيب آخرين وقد يكون الآخرون أولئك أعتى وأشد كفرًا وفسادًا؟ ثمَّ إنَّ كثيرًا من المتضرّرين من هذه المصائب مسلمون، وفيهم من لا يُتصوَّر منه الذنب أصلاً كالأطفال، ومُقتضى العدل والرحمة أنْ تتوجَّه هذه العقوبات لغيرهم من أهل البغيِ والظلم والعدوان.

هذه الأسئلة مثار لشبهات خطيرة حول عقيدة القضاء والقدر، والحكمة الإلهية في خلق الكون وتدبيره، والعدل الإلهي في محاسبة الخلق ومعاقبتهم، وقد تناولها الباحثُ بطريقةِ التوفيق بين الوحي الثابت نقلاً وفهمًا، وبين صريح الحسّ والعقل، والتفويض فيما وراء ذلك، فيما غاب عنا سِرُّه ولم تُطِقه عقولنا من خفايا خلقِ الله وحكمته.

## السُنة الإلهية في الخلق والتدبير:

إنَّ جميع ما يحدث في الكون إنَّما هو كائن بقُدرة الله وعِلمه وحِكمته، وهذه هي عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، ثمَّ إنَّ السُنة الإلهية قد جَرَتْ في إيجاد المخلوقات وتدابيرها على ربط المخلوقات بعضها ببعض تأثرًا وتأثيرًا، وتنظيم الحوادث والكائنات بأسبابٍ متقدمة لا تكون بدونها، وآثارٍ ناتجة لا تتخلَّف عنها، إلا أنْ يشاء مرتِّبها ورابطها.

ولمعرفة سنة الله في خلقه وتدبيره طريقان:

الأولى: الحِسُّ، بما يؤدّيه للعقل من مدركات، وهذه الطريق هي الأوسع في إدراك الأمور الكونية القدرية.

الثانية: الوحي بما يكشفه من أسرار الخلق الخفية، الغائبة عن إدراك الإنسان، كالذي جاء ذكرُهُ في القرآن والسنة من وظائف الملائكة وما أوكل الله إليها من تدبير المخلوقات.

والمصائب والكوارث جاريةٌ على سنة الخلق والتدبير الإلهية في الارتباط بين الأسباب والآثار، ويُعرف هذا الارتباط بالطريقين السابقين، فالطريق الحسية يظهر بها أنَّ ما أصاب الناس إنَّما نتج عن أسباب مادّية معقولة المعنى، فالغرق مثلاً يحصل بسبب طغيان الماء أو إهمال إجراءات السلامة، والحرق يحصل بسبب النار أو الإهمال كذلك، والطريق الغيبية تُبيِّن أسبابًا أخرى خَفية لهذه المصائب؛ وهي ذنوب المكلَّفين ومعاصيهم، ولا تتنافى هذه الطريق مع السابقة، كما أنَّ الإيمانَ بتدبير الملائكة للمخلوقات بإذن الله وقُدرته لم ينافِ المحسوسَ من الأسباب والآثار في تدبير الله لخلقه.

والعقيدة الإيمانية في ارتباط شرور المصائب والكوارث بذنوب العباد ومعاصيهم نظير العقيدة الإيمانية في جانب الخير والنعم، بأنَّها حاصلة ببركة عبادة الله وشُكر نعمه، دون أنْ يتنافى ذلك مع اعتبار الأسباب الحسية لجلب هذه النعم تأثيرًا وتعاطيًا.

لكن هل يعني هذا أنَّ كلَّ مصيبةٍ وراءَها ذنب؟ وإذا كان العلم بهذا غيبيًا، فمن أينَ لنا تنزيلُه بتفصيلٍ على الحوادث المتجدِّدة وقد انقطع الوحي؟

> **جرت السُنة الإلهية على ربط المخلوقات بعضها ببعض تأثرًا وتأثيرًا، وتنظيم الحوادث والكائنات بأسبابٍ متقدمة لا تكون بدونها، و آثارٍ ناتجة لا تتخلَّف عنها، إلا أنْ يشاء مرتِّبها ورابطها.**

## تقدير المصائب والذنوب، والعلاقة بينهما:

المصيبة اسم «فاعلة» من أصاب يُصيب فهو مصيب، وأُنِّثت لأنَّها صفة للحادثة، أو للمبالغة، ومقتضى الأصل اللغوي أنْ يعُم ذلك كلَّ ما يصيب الإنسان من خيرٍ أو شرّ، لكنَّ العرف خصَّها بالمكروه.

والمصائب من الحوادث القدرية المترتّبة على أسبابها، وهي تقع عامة وخاصة، كما قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، فالمراد بالمصيبة في الأرض: الكوارث

والآفات العامة، والمراد بمصائب الأنفس: الأمراض والأوجاع والهلاك.

وللذنوب علاقة بالمصائب الدنيوية من جهة كون المصائب عقوبة عليها، وهي علاقة جزئية من وجهٍ دون وجه:

أ- فمن الذنوب ما عقوبته مصائب دنيوية، ومنها ما عقوبته أُخروية، عن أنسٍ رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أرادَ الله بِعبده الخيرَ عجَّلَ له العقوبةَ في الدنيا، وإذا أرادَ اللهُ بعبدِه الشرَّ أمسكَ عنه بذنبه حتى يُوافِيَ به يوم القيامة)[١].

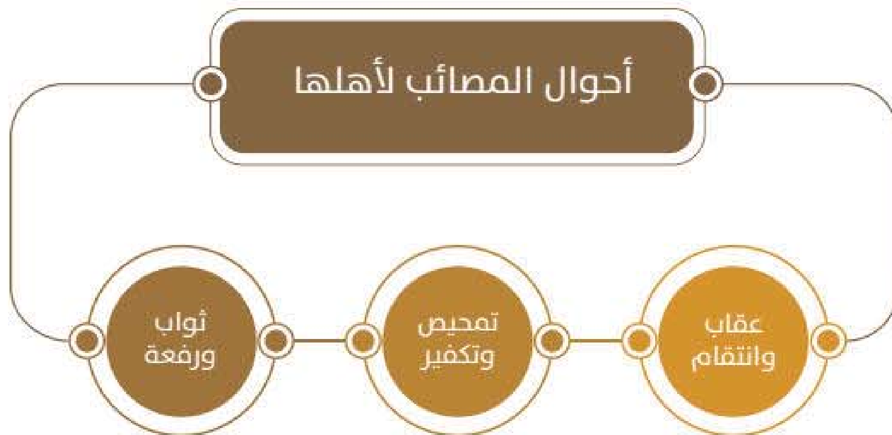
ب- ومن المصائب ما هو أثرٌ للذنوب، ومنها ما هو ليس كذلك بل محض ابتلاء، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنَّ عِظَمَ الجزاء مع عِظَم البلاء، وإنَّ الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رَضيَ فله الرِّضا، ومن سَخِطَ فله السُّخط)[٢]، ويدخل في هذا غالبُ ابتلاءات الأنبياء ومصائبهم، فهم معصومون من تعمُّدِ الذنوبِ والاجتراءِ على المعاصي، والإصرارِ عليها على وجهٍ يقتضي مُعاجلتهم بالعقوبة عليها.

وتتعلق المصائب بالذنوب من جهة أخرى غير العقوبة والمجازاة، ألا وهي تمحيص الذنوب وتكفير الخطايا، كما دلَّ عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما مِن مُصيبة تُصيب المسلم إلا كفَّر الله بها عنه، حتى الشوكةَ يُشاكُها)[٣].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلَ على أم السَّائب، فقال: ما لَكِ يا أم السَّائب تُزَفزِفين؟ قالت: الحُمَّى لا بارك الله فيها، فقال لا تَسُبِّي الحمَّى؛ فإنَّها تُذهب خطايا بني آدم كما يُذهب الكِيرُ خَبَثَ الحديد)[٤]. قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «والمعنى والله أعلم: أنَّ الحمَّى في الدنيا تكفِّر ذُنوب المؤمن، ويُطهَّر بها حتى يلقى الله تعالى بغير ذنبٍ، فيلقاه طاهرًا مطهَّرًا من الخُبث، فيصلح لمجاورته في دار كرامته دار السلام، ولا يحتاج إلى تطهير في كير جهنم غدًا، حيث لم يكن فيه خبث يحتاج إلى تطهير، وهذا في حق المؤمن الذي حقق الإيمان، ولم تكن له ذنوبٌ إلا ما تُكفِّره الحمَّى وتطهِّره، وقد تواترت النصوص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكفير الذنوب بالأسقام والأوصاب، وهي كثيرةٌ جدًا يطولُ ذكرها»[٥].

> **لا ينبغي إدخال هذه المكفِّرات والممحِّصات في قاعدة العقوبات مطلقًا، ذلك أنَّ كمال الكرم والرحمة الإلهية ينافي المؤاخذةَ الدقيقة على ما لا سبيل إلى السلامة منه من الصغائر**

ولا ينبغي إدخال هذه المكفِّرات والممحِّصات في قاعدة العقوبات مطلقًا، ذلك أنَّ كمال الكرم والرحمة الإلهية ينافي المؤاخذةَ الدقيقة على ما لا سبيل إلى السلامة منه من الصغائر، بمقتضى الطبيعة البشرية. فبابُ تكفير الذنوب ومحو الخطايا أعمُّ من باب المعاقبة عليها، فتصير المصائب هنا من




(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦).
(٣) أخرجه البخاري (٥٦٤٠).
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٧٥). ومعنى (تُزفزفين): هامش: ترتعدين من البرد.
(٥) مجموع رسائل ابن رجب (٣٧٤/٢).

جنس المُكفرات كالصلوات والصيام والصدقة والحج وغيرها من الحسنات الماحية للذنوب، فهي داخلة في الكرم الإلهي، لا المقاصة والعدل[1].

فالمصائب أعمُّ مطلقًا من العقوبات، فبينهما علاقة عمومٍ وخصوصٍ مطلق، فكلُّ عقوبةٍ مصيبةٌ، وليس كلُّ مصيبةٍ عقوبةٌ، وذلك أنَّ العقوبة مصيبة وقعت على سبيل المجازاة، بخلاف بقيّة المصائب المقدَّرة بأسباب أخرى.

> **المصائب أعمُّ مطلقًا من العقوبات، فبينهما علاقة عمومٍ وخصوصٍ مطلق، فكلُّ عقوبةٍ مصيبةٌ، وليس كلُّ مصيبةٍ عقوبةٌ، وذلك أنَّ العقوبة مصيبة وقعت على سبيل المجازاة، بخلاف بقيّة المصائب المقدَّرة بأسباب أخرى**

## علاقة المصائب بالعقوبات والإشكالات حولها:

تضافرت الأدلَّة من القرآن والسنة على أنَّ الذنوب من جملة أسباب المصائب الدُّنيوية، وأنَّ الله يُجازي بالذنوب ويعاقِبُ عليها في الدنيا بأنواع المصائب؛ من الألم والحرمان، والشقاء والقلَّة، والأذى والعلَّة.

ومن ذلك ما ذكره الله من العقوبات العظيمة التي أصاب بها مُكذِّبي الرسل، ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]، ونحوها من الآيات التي تذكر عذابَ الاستئصال في الدنيا، وإنْ كانت العقوبات الجزئية على الذنوب والمعاصي مهما بلغت فهي دون عذاب الاستئصال في القدْر والكيف. كما أنَّ هذا العذاب الدنيويَّ العامَّ الذي تكرّر ذِكرُه في قصص الأنبياء قد عصم الله منه الأمّةَ المحمَّدية: (وإنِّي أعطيتُك لأُمَّتِكَ ألا أُهلِكَهم بِسَنَةٍ عامَّة)[2].

ولعل أشهَرَ دليلٍ على الارتباط بين المصائب والذنوب هذه الآية: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] فهي تدل على العموم، وصيغة العموم فيها مستفادة من تنكير «مصيبة» في سياق الشرط ودخول «مِن» عليها، فدلَّتْ على أنَّ كُلَّ مصيبةٍ وبلاءٍ وراءَهُ ذنب. وقد ورد هذا الفهم عن بعض السلف، يقول ابن جرير الطبري: «فإنَّما يُصيبكم ذلك عقوبةً من الله لكم بما اجترأتم من الآثام فيما بينكم وبين ربِّكم»[3].

إلا أنَّ الخطاب في الآية يحتمل أن يكون من العامِّ المخصوص؛ فلا يتناول إلا مصائب العقوبات دون سواها من المصائب، ومن هذا ما رُوي عن الحسن من تفسيرها بالحدود، كما يحتمل الخطاب أن يكون مرادًا به المصائب العامة[4].

ومن الأدلة من القرآن قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، فدلَّ قوله: «لِيُذِيقَهُم» على أنَّ الضرر الحاصل من هذا الفساد نُزِّل منزلة العقوبة.

ومنها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فتشيرُ هذه الآيةُ الكريمة إلى عموم الارتباط بين النعم وجودًا وزوالًا وبين أسبابها الإيمانية الغيبية من الشكران والكفران[5].

أمَّا الأدلّة من السنة على أنَّ المصائبَ عُقوبات على الذنوب فكثيرة، لعلَّ من أجمعِها حديثُ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أقبَلَ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (يا معشرَ المهاجرين خَمسٌ إذا ابتُليتم بهِنَّ وأعوذُ بالله أن تُدركوهن، لم تظهر الفاحشةُ في قوم قَطُّ حتى يُعلنوا بها إلا فَشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم يُنقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسِّنينَ وشدَّة المؤونة وجَور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القَطْرَ من

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «المصائب المُقدَّرة في النفس والأهل لا تخلو من ثلاثة أحوال: إما أن تكون كفارة، وإما أن تكون زيادة في الأجر والثواب، وإما أن تكون عقابًا وانتقامًا»، الصارم المسلول على شاتم الرسول (٤٣٢/١)- الكاتب.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

(٣) تفسير الطبري (٥٣٨/٢١).

(٤) وهذا توجيه قوي أنَّ المصائب العامة إنَّما تكون عقوبةً على ذنوب انتشرت وفشت، ثمَّ تتفاوت عند تنزيلها على الأفراد فقد تكون عقوبة، أو تمحيصاً، أو محض ابتلاء.

(٥) ساق الباحث أدلة أخرى كثيرة، فلتراجع.

السماء، ولولا البهائم لم يُمطَروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلَّط الله عليهم عدوًا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيَّروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»[1]. ففي هذا الحديث تفصيل لما سبق في الآيات الكريمات من الترابط بين الذنوب والمصائب، وفيه دلالة صريحة على دخول المؤمنين في قاعدة العقوبة بالمصائب وأن ذلك يكون بسبب ارتكاب الذنوب أو التفريط في الفرائض[2].

> **يسوغ عند المصيبة العامة تذكير الناس بأن ما أصابهم قد يكون عقوبة، ليتفقدوا أحوالهم مع الله، وليس في هذا غضاضة على المؤمنين ولا قدح في أعيانهم**

وعلى ضوء هذا التفصيل، يمكن القول إنه تسوغ مواجهة المصاب باحتمال كون المصيبة عقوبة، وضرورة تفقُّد نفسه، والمبادرة بالتوبة في حالين:

١- أن يتَّهم المصابُ نفسَه، فهذا مُقتضى العبودية لله والخشية منه، ومن هذا الباب ما وَرَدَ عن بعض السلف من تنزيل بعضِ نصوص العقوبات الدُّنيوية على أنفسهم، وأنَّ ما أصابهم إنَّما هو عقوبَة على ذنوبهم، حتى رُوي عن بعضهم: «ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، وما رُفع إلا بتوبة»، حتى قال بعضهم: «إنّي لأعصي الله فأعرفُ ذلك في خُلُق امرأتي ودابّتي»، فكلُّ هذا خارج مخرج اتهام النفس، والتواضع لله، والاعتراف بالتقصير في حقِّه، لا أنَّ لديه علمًا عن الله أنَّه عُوقب بهذه المصيبة على وجه الخصوص، إذ القطعُ بتعيين العقوبات لا سبيل له إلا بوحي. وهو نظير ما جاء عن بعضهم من الخوف على نفسه من النفاق ونحوه[3].

٢- أن تكون المواجهة خطابًا عامًا على مصيبة عامة، من باب التذكير بأنَّ المصيبة قد تكون عقوبةً وإن لم يجزم بها، ليتفقَّد الناس أنفُسهم وأحوالَهم مع الله، وليس في هذا الربط غضاضةٌ على المؤمنين وقدحٌ في أعيانهم، فالخطاب العام لا يلزم جميع أفراد المخاطبين، بل ولا أكثرهم، وعلى هذا يُفهم ما ورد من مواعظ بعض السلف عند حُلول المصائب، كما روي أن المدينة زُلزلت على عهد عمر رضي الله عنه، فقال: «أيُّها الناس ما هذا؟ ما أسرع ما أحدثتم! لئن عادت لا أُساكنكم فيها»[4].

## إشكالات حول تعلق المصائب بالعقوبات الإلهية:

وبالعودة إلى التساؤلات التي وردت في بداية البحث:

١- أما كون الحوادث العامة كالزلازل والبراكين والعواصف والأعاصير، مرتبطة بنظام الخلق وتدبير الكون، وقد كانت موجودة قبل خلق الإنسان، وأكثرُ حدوثِها في الأرض في أماكن لا يُوجد بها بشر، فكيف ترتبط بذنوب البشر وفسادهم؟

فإنَّ هذا الإشكال مبنيٌّ على فهمٍ غير دقيقٍ في طبيعة العلاقة بين الذنوب والأحداث الكونية، وافتراض أنّها علاقة مطلقة، وقد تبيَّن مما مضى أنَّ إشارات القرآن والسنة إلى هذه العلاقة إنَّما دلّت على كون بعض هذه الأحداث عقوبات، فما كلُّها عقوبات، ومن جهة أخرى فليست العقوبة هي الغرضُ الأصلي أو الوحيد لوجودها، بل هي ساريةٌ وفق السنن الإلهية في الخلق والتدبير للأسباب والآثار تحت مشيئة الله وقدرته، فإذا شاء أن يجعل الله شيئاً منها عقوبةً على ذنب لم يُشكل كونُها ذات وظيفةٍ أخرى تؤدِّيها ضمن النظام العام للخلق والتدبير.

ونظير هذا وجودُ النعم ووفرتُها قبل وجود المنعَم عليهم، بل زوالُ كثير من أفرادها دون تنعّم أحدٍ به فيما نُدركه ويظهر لنا، فكم من ثمرٍ وظلالٍ وغيثٍ وزرعٍ وُجد وفني دون أن ينعم به أحدٌ من البشر، فلم يكن مانعًا من اعتبار ما أصابه البشر بعد ذلك من أشباهه نعمة إلهية وبركة بسبب الإيمان.

وقد حدَّثنا القرآن عن العقوبات التي أصابت مكذبي الرسل في سالف الدهر فكان منها: ﴿رِيحٌ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩).

(٢) ويقال في توجيه صيغة الحصر في الحديث ما قيل في آية الشورى، أنَّ الذنوب إذا انتشرت وفشت أوشك أنْ تأتي بعدها مصيبةٌ عقوبةٌ عامةٌ للناس عليها، ثمَّ يكون حال الأفراد فيها بحسب التفصيل.

(٣) وأما خطاب الرجل لغيره في مصيبته، فالأصل تعزيته ومواساته، وتعليقه برحمة الله، وتغليب جانب الرجاء عنده، فيرجّيه بتمحيص الذنوب ورفع الدرجات، إلا أن يظهر عليه الاستمرار في غيه وفجوره فلا بأس من زجره بذنوبه دون الجزم بأن ما أصابه هو عقوبة ذنبه المعين، بل يعظه وعظاً عامًا كأن يقال له: الله ينذرك وأنت لا تزال مقيمًا على ما أنت فيه.

(٤) أخرجه نعيم ابن حماد في الفتن (١٧٣١).

فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، و: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١-١٢]، ولم يمنع من ذلك كون هذه الوسائل عينها أسباباً للحياة والنعيم في حال أخرى إذا شاء لها خالقها، كما قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢]، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ [يس: ٣٤-٣٥].

٢- وأما أن كثيرًا من المصابين بهذه الكوارث إنما عندهم من الذنوب ما عند غيرهم من شرك وكفر وفساد معتاد عند أكثر أهل الأرض، بل قد يكون غيرهم مما لم يصب بمثل مصائبهم أعتى وأشد كفرًا وفسادًا، فما وجه اختصاصهم بها دون غيرهم؟

فالاختصاص بالعذاب زمانًا ومكانًا وأشخاصًا أمر راجع إلى محض المشيئة الإلهية والحكمة الربّانية ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، ولو ساغ الاعتراض بمثل هذا لم تبق مزيّةٌ للخالق علّام الغيوب.

> **قد يؤجل العقوبة مانع لا يُنتبه إليه، فيظنُّ الظانُّ أنَّ الكُفر والفجور لم يمنع النعمة أو يجلب النقمة، وإنما هي أسبابٌ وموانعُ خفيّة.**

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى حكمة التفريق بين الناس في معاجلة العقوبة فقال: (ما من ذنبٍ أجدرُ أن يُعجِّلَ اللهُ تعالى لصاحبِه العقوبةَ في الدنيا، مع ما يَدّخِرُه له في الآخرةِ من قطيعةِ الرَّحِمِ، والخيانةِ، والكذبِ، وإنَّ أعجلَ الطاعةِ ثوابًا لصلَةُ الرَّحِمِ، حتى إنَّ أهلَ البيتِ ليكونوا فجَرةً ، فتنمو أموالُهم، ويكثُرُ عددُهم، إذا تواصَلوا)[١].

فهذه إشارةٌ لطيفة إلى أنَّ العقوبة قد يؤجّلُها مانع لا يُنتبه إليه، فيظنُّ الظانُّ أنَّ الكُفر والفجور لم يمنع النعمة أو يجلب النقمة من غير سبب، وإنما هي أسبابٌ وموانعُ خفيّة.

> **المصيبةَ الواقعةَ على غيرِ المكلَّف قد تتَّحد مع العقوبةِ الواقعةِ على المكلَّفِ المذنب؛ فتكون عقوبةً من وجه ومصيبةً من وجه، بل ونعمةً من وجهٍ ثالث، وكلُّ ذلك لا يمنع أيضًا أن يكون لها سببٌ محسوسٌ معتادٌ في ظاهر الأمر.**

٣- وأمّا أنَّ كثيرًا من المصابين في هذه الآفاتِ مسلمون، وفيهم من لا يُتصوَّر منه الذنب أصلاً كالأطفال والمعتوهين ونحوهم، ومقتضى العدل والرحمة أنْ تتوجَّه هذه الآفات لغيرهم من أهل البغي والظلم والعدوان، لو كانت عقوبات.

فجوابه: أنَّ الذي يُنافي مقتضى العدل والرحمة أنْ تتَّجه العُقوبة إلى غير المكلَّفين على وجه القصد أو الخُصوص، أمّا أنْ تشملهم المصائب التي عُوقب بها غيرهم من باب السببية أو التلازم فذلك لا إشكال فيه على التقديرين:

- أمّا في السببية فلأنَّ المقتضي للعقوبة الذي ارتكبه المكلَّف يقوم مقام التسبُّب المعتاد في جلب المضارّ، فيطال غير المكلَّفين من هذه الجهة لا غير، فهو نظيرُ ما يُصيبهم بسبب إهمال أوليائهم أسبابَ سلامتهم من الكوارث والحوادث، كتضرُّر الأطفال من حوادث السيارات بسبب السرعة المفرطة، فالذنوب الجالبة للعقوبة أسباب غيبية تناظر هذه الأسباب المحسوسة المعتادة. ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يغزو جيشٌ الكعبة، فإذا كانوا بِبيدَاء من الأرض، يُخسَف بأولهم وآخرهم قالت عائشة: قلتُ: يا رسول الله، كيف يُخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقُهم، ومن ليس منهم؟ قال: يُخسف بأولهم وآخرهم، ثم يُبعثون على نيَّاتهم)[٢].

- وأمّا في التلازم، فإنَّ المصيبةَ الواقعةَ على غير المكلَّف قد تتَّحد مع العقوبة الواقعة على المكلَّف المذنب؛ فتكون عقوبةً من وجه ومصيبةً من وجه، بل ونعمةً من وجهٍ ثالث، وكلُّ ذلك لا يمنع أيضًا أن يكون لها سببٌ محسوسٌ معتادٌ في ظاهر الأمر، كأن يكون في تقدير الله أنَّ فلانًا مستحقٌّ للعقوبة، فيكونُ له طفلٌ لو تربّى على يديه لفسد قلبه، فأفضى إلى شقائه، فيُعاقَب بموت هذا الطفل بسبب مرضٍ معتادٍ، ويكونُ موته مصيبةً على والدته وأقربائه غير

(١) أخرجه بهذا اللفظ في السيوطي في الجامع الصحيح (٥٧٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع.
(٢) أخرجه البخاري (٢١١٨) واللفظ له، ومسلم (٢٨٨٤).




مستحقّي العقوبة، ويكون نعمةً على هذا الطفل، إذ ضمن الجنة وعوفي من بلاء المحنة. فالمصيبةُ لا تسمى عقوبةً إلا في حقّ المذنب دون البريء، وإن أصابتهما معًا، فهي للمذنب عقوبة وللبريء ابتلاءٌ وتمحيص، ورفع الدرجات وتكفير للخطيئات.

> **يردُ الإشكال عادةً من النظر الجزئي المغفِل للاعتبارات المتعلقة بالسببية والتلازم أو بعضها، ومن الالتفات الكلي للسبب المحسوس المعتاد دون التقديرات الغيبية الكلية، والحكمة الإلهية العليا، ومن قياس الخالق على المخلوق في موازنة النعم والنقم، ومن إغفال نسبة الدنيا من الآخرة.**

والقصد أنَّ الإشكال إنَّما يردُ من النظر الجزئي المغفِل لهذه الاعتبارات أو بعضها، ومن الالتفات الكلي للسبب المحسوس المعتاد دون التقديرات الغيبية الكلية، والحكمة الإلهية العليا، ومن قياس الخالق على المخلوق في موازنة النعم والنقم، ومن إغفال نسبة الدنيا من الآخرة.

وهكذا يُقال في كون العقوبة قد تَطالُ بعض المسلمين، فتشملهم مع الكافرين، أو تتجاوز الكافرين إليهم، فهم:

أ- ما بين مُستحِقٍّ لها بالسكوت عن إنكار الذنوب الجالبة لها، فيشترك مع المذنب في العقوبة الدنيوية من هذا الوجه، ويفترقان في الآخرة بحسب قدر جُرمِ كلٍّ منهما، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: (ما مِن قومٍ يُعمل فيهم بالمعاصي، هُم أعزُّ وأكثرُ ممَّن يَعملُهُ، لم يُغيِّروا إلّا عمَّهُم اللهُ بِعِقابٍ»[1].

ب- أو غير مُستحِقٍّ للعُقوبة، فيكون ما أصابه منها في حقِّه ابتلاءٌ ومُصيبة لا عقوبة، تُكفَّرُ بها خطاياه، وتُرفع بها درجاتُه، ويكون تخلُّف العناية الإلهية عن استنقاذِهِ من ذلك محضُ عدلٍ إلهي، إذْ آثر الله في هذا الحال المعيَّن ما هو أحبُّ إليه من حكمةِ الابتلاء أو حكمة التمحيص والتطهير على فضل الإنجاء ورحمةِ كشف الضُّر[2].

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان في صحيحه (٣٠٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٣٥٣).

(٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون، فأخبرني: (أنَّه عذاب يبعثُه الله على من يشاء، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين، ليسَ من أحدٌ يقعُ الطاعون، فيمكثُ في بلده صابرًا محتسبًا، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثلَ أجرِ شهيد) أخرجه البخاري (٣٤٧٤).



# عطايا الله للمتقين

د. أيمن هاروش[1]

التقوى وصية الله لعباده، وهي مراتب، ولها ثمرات في الدنيا وثمرات في الآخرة، ولعل في بيانها والتذكير بها ما يشوّق العبد ويحفّزه لسلوك سبيله.

الوصية الخالدة التي وصى اللهُ بها عبادَه الأوّلين والآخرين، وخصَّ بها المؤمنين، هي التقوى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء:١٣١].

وهي وصية الأنبياء جميعًا لأقوامهم، كما قصَّ علينا القرآنُ الكريمُ أخبارَهم، ولعل سِرَّ ذلك أنَّ التقوى هي غاية الغايات، فالغايةُ من خلق الإنسان هي عبادة الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والغاية من العبادة هي الوصول للتقوى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

والتقوى سبب السعادة في الدارين، وكلُّ خيرٍ فرعٌ عن التحقُّق بالتقوى، وفي هذا المقال نُحاول أن نشير إلى الثمرات الطيّبة التي يجنيها من تخلَّق بخُلُق التقوى، لعلَّ في بيانها مُشوقًا ومحركًا للسير على نهجها.

## تعريف التقوى:

التقوى هي صيانة الإنسان نفسَه عن أذى أو شرٍّ يخافه، باتّخاذ ما يحولُ بينه وبين ما يخاف[2].

وأما المعنى الشرعي للتقوى فكثرت تعابير العلماء عنها، وهي ترجع إلى جعل وقاية بين العبد وبين عذاب الله، بفعل الطاعات وترك المعاصي.

## التقوى مراتب:

بالنظر إلى جانب فعل الطاعات وترك المعاصي: يتبيَّن أن للتقوى مراتب، فما هي المرتبة التي يجب التحقُّق بها للوصول لدرجة التقوى؟

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، وحقُّ التقاة كما جاء بيانه عن ابن مسعود رضي الله عنه: «أن يُطاع الله فلا يعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يكفر»[3].

وبما أنَّ هذه مرتبة عليا قد لا يُطيقها أغلب

(١) دكتوراه في الشريعة والقانون تخصص أصول الفقه، أستاذ مساعد بكلية العلوم الاسلامية جامعة آغري.

(٢) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (وقى)، (٤٠١/١٥)، وفتح المتعال على القصيدة المسماة بلامية الأفعال، لحمد بن محمد الصعيدي المالكي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤١٧هـ، ص (٢٤١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، لابن كثير (٨٧/٢).

الناس، فقد جاءت الآية الأخرى موضحةً القدر الواجب من التقوى، فقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فبيَّن أنَّ التقوى مطلوبة على قدر استطاعة الإنسان.

وبيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أن الاستطاعة تكون في دائرة الأوامر، أما دائرة النواهي فيجب اجتنابها كلها، فالأوامر قد يشقُّ على الإنسان فعلُها على الوجه المطلوب، فيتوجَّه إليه الأمر بفعل ما يستطيع، أما النواهي فلم يكلِّف الله العبد ما لا يُطيق، ولم ينهه عن شيء لا يمكنه تركه.

قد يقال: إن ترك ما نهى اللهُ عنه كلَّه يقتضي ألا يقع الإنسان في معصية أبدًا، وهذا محال، فالعصمة للأنبياء فقط، فكيف يصل لهذه المرحلة؟

هنا لا بد من فهم حديث ابن مسعود السابق في ضوء نصوص أخرى، تبيّن أن المتقين يرتكبون المعاصي، لكن لا يُصرون عليها، كقوله تعالى في وصف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ – ١٣٥]، فالآية وصفت المتقين بأنَّهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله، فاستغفروا لذوبهم، وبأنهم لم يُصرُّوا على الذنب، وفيها معنيان اثنان:

المعنى الأول: أن المتقين يقعون في المعصية، وهذا من الطبيعة البشرية، ودلالة ذلك من أداة الشرط (إذا)، فالأصل فيها أنها تدخل على متحقِّق الوقوع، أي: شرطها مقطوع بوقوعه، بخلاف (إنْ)، فشرطها ليس مقطوعًا به[1].

والمعنى الثاني: أنهم لا يُصرون على المعصية، بل يدركون خطأهم مباشرةً، ويعودون للتوبة، وهذا هو الفرق بين معصية المتقين ومعصية الفاسقين.

فالاجتناب في الحديث السابق هو ترك المعصية وعدم الإصرار عليها إن وقع فيها العبد، وهذا هو ما دل عليه الحديث النبوي: (كُل بني آدمَ خطَّاء، وخيرُ الخطَّائينَ التَّوابونَ)[2].

وبذلك يمكن القول: التقوى هي فعل ما أمر الله به على قدر الاستطاعة، وترك ما نهى الله عنه، مع الاستغفار وعدم الإصرار إن وقع في الذنب.

والمعنى السابق للتقوى حالة يختلف الناس في تحقيقها، لذا يمكن جعل التقوى على ثلاث درجات:

### ١- البراءة من الشرك:

الشرك هو المعصية التي لا يغفرها الله تعالى، ولا تجتمع مع الإسلام والإيمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فتركها مطلوب من المسلم تركًا قطعيًا، ولا يصحُّ إيمان المسلم إلا بترك كل أنواع الشرك، وهذه مرتبةٌ لا بدّ من تحقيقها، ولا يُقبل إسلام المرء إلا بها.

### ٢- التقوى من المعاصي:

كلُّ ما عدا الشرك يغفرُهُ الله للعبد إن وقع فيه واستغفر منه، والمتَّقي يُجاهد نفسه حتى لا يعصي الله تعالى، ويستغفر إن ألمَّ بمعصية.

### ٣- الابتعاد عن الشبهات:

من خُلُق المؤمن التقي أن يترك الشُّبهات، وهي أمور ليست محرَّمة قطعًا، ولكنها ليست حلالًا خالصة، أي التبس فيها الحلال بالحرام، فترك الشبهات أنقى وأتقى، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (لا يَبلغُ العبدُ أن يكونَ مِن المتقينَ حتى يَدعَ ما لا بَأسَ به حذرًا مما بِه بَأس)[3]، وقال صلى الله عليه وسلم : (دَع ما يَريبُكَ إلى ما لا يَريبُكَ)[4].

وهذه المرتبة هي ما تسمى بالوَرع، وهي أعلى درجات التقوى.




درجات التقوى

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، عبد المتعال الصعيدي (١٦٩/١).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وصححه الحاكم في المستدرك (٢٧٢/٤).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٥١) وقال: حديث حسن غريب.
(٤) أخرجه الترمذي (٢٥١٨) وقال : حديث صحيح.

**قال الإمام مالك للشافعي رحمهما الله تعالى أول ما لقيه: "إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا فلا تطفئه بظلمة المعصية"**

## ثمرات التقوى

التقوى جماع الخير كله، أي هي التي جمعت كل الخير، فمن أراد خير الدنيا وخير الآخرة فسبيله التقوى.

ويمكن تقسيم هذه الثمار لمجموعتين: ثمرات دنيوية، وثمرات أخروية.

## فأما الثمرات الدنيوية:

فمن أهم ما تثمره شجرة التقوى من ثمرات في الدنيا لمن حققها، ما يلي:

أ- العلم: قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

من سَلك طريق العلم وحرص وجدَّ نالَ مراده، وهذا القَدر يستوي فيه التّقي وغير التّقي، بل المسلم والكافر، إلا أن هناك علمًا أو جانبًا من العلم لا يصل إليه العبد مهما جدّ وتعب، إلا بالتقوى، وهو النور الذي يقذفه الله تعالى في قلب المؤمن، فيدرك من أسرار العلوم وحقائقها ما لا يدركه غيره، قال الإمام مالك للشافعي رحمهما الله تعالى أول ما لقيه: «إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا فلا تطفئه بظلمة المعصية»[1].

وللتقوى أثر أعمق في فهم العلوم، وهو أنها تُنير قلب صاحبها ليُبصر الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، والفرقان كما قال بعض المفسرين: «هدى في قلوبهم يفرقون به بين الحق والباطل»[2].

ب- الرزق: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

ليست حقيقة الرزق في مقدار ما يعطيه الله للعبد من المال والذي قد يستوي فيه المسلم والكافر، والطائع والعاصي، بل حقيقة الرزق أن يجدَ العبدُ الراحة في طلبه وكسبه وإنفاقه، وأن يستمتع به، وهذا لا يُعطيه الله إلا للتَّقي، فمن أعطي التقوى فقد أعطي في رزقه أمورًا كثيرة منها:

- يأتيه من حيث لا يحتسب، ويسوقه له من طرق ما كان يخطر بباله أنه يأتي منها.
- البركة في رزقه، وهي مفهوم معنوي له أثر مادي، فالمال المبارك يكفي صاحبَه أضعاف غيره.
- أن ينتفع به في وجوه تعود بالفائدة عليه في بدنه ودينه ودنياه.
- أن يصرف عنه من السوء والبلاء ما لو وقع لكان يستهلك رزقه وماله.
- يُوفِّقه لإنفاقه في الخير والمعروف، فالتوفيق لاستثمار المال بالخير رزق من الله وتوفيق.

**الرزق أن يجدَ العبدُ الراحة في طلبه وكسبه وإنفاقه**

ت- الفرج: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

جبل الله تعالى الحياة على المحن والكروب، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، ولربما تشتدُّ على العبد حتى يفقد صبره وتهلكه، لكن التقي الذي استنار قلبه بنور الطاعات، يجعل الله له من همه فرجًا ومن ضيقه مخرجًا، ويدافع عنه ويرد عنه، ويرزقه من برد اليقين ما يهون عليه المصائب والمحن.

ث- مغفرة الذنوب: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]

وقد نتساءل ما أثر التقوى هنا؟ فإذا كان الله تعالى يغفر لكل من تاب وأناب فما فضيلة التقوى؟

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٤/١٩٩).
(٢) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (٢/ ٢٠٤).




ولعل أثر التقوى أن الله تعالى لا يترك المتقين فريسة للشياطين وأهوائهم، بل يلهمهم التوبة والاستغفار فورًا، فهم بتقواهم أعز على الله من أن يتركهم للهلكة، بخلاف أهل الضلال يمدهم في الضلالة مدًا، كما قال عن إخوان الشياطين ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

> **من آثار التقوى أن الله تعالى لا يترك المتقين فريسة للشياطين وأهوائهم، بل يلهمهم التوبة والاستغفار فورًا،**

ج- تعظيم الأجر: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

قال ابن كثير: «ويجزل له الثواب على العمل اليسير»[١].

إن الحسنات تتضاعف لأهل التقى والإيمان كقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨]، كما يتضاعف العذاب للكافرين، قال تعالى: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ١٩-٢٠]، ولعل من مضاعفة الأجر التوفيق بسبب التقوى لأعمال البر والخير فيزداد ثوابه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧]، أو بالتوفيق للإخلاص والصدق في نفس الطاعة فيعظم قدرها وأجرها.

ح- الهداية: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

من التزم الطاعات وترك المنكرات، قذف الله في قلبه نورًا يهتدي به، وكافأه الله على تقواه بالهداية للحق والثبات عليه، ولقد بين الله تعالى أن القرآن وإن كان قد نزل هداية للعالمين لكن في الواقع إنما ينتفع ويهتدي به المتقون، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، فالتقوى جعلت من قلب صاحبها محلًا أثمر فيه الكتاب وأينع.

خ- المحبة: قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

(١) تفسير ابن كثير (١٥٢/٨)

إن أسمى ما تسمو له أنظار العارفين، هي أن يدخلوا في زمرة من أحبَّهم الله تعالى، فليس الأمر أن تُحِبَّ بل الأمر أن تُحَبَّ، ولنتأمل هذا المعنى الكبير من الحديث القدسي: (وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إلي مما افترضتُ عليه، وما يزالُ عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُه: كنتُ سمعهُ الذي يسمعُ به، وبصرهُ الذي يُبصر به، ويدَه التي يبطِش بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإن سألني لأُعطِينَّه، ولئن استعاذَني لأُعيذَنه)[1].

فأي فضل أعظم من أن يُصبح العبد ينظر ويسمع بنور الله، ويمشي ويبطش بتوفيق الله، ولا يُرد له طلب، ويكون في كنف الله ورعايته؟!

د- المعية: قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

كثيرة هي المصاعب التي تعترض حياة الإنسان، والإنسان بطبعه عاجز وضعيف، لذا ما أحوجه لمن يعينه ويؤازره، وليس هناك ركن أقوى ولا أمنع من الله تعالى، فمن كانت معه معية الله ما ضرَّه أحد أبدًا، وامتلأ قلبه باليقين الذي يجعله يحتقر كل المخاطر، ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

ذ- السعادة: قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

السعادة مطلبُ كل ساعٍ في هذه الحياة، وقل من يسلك طريقها الصحيح وهو التقوى، فالسعادة راحة في القلب وطمأنينة في النفس، وسكينة لا يمنحها الله تعالى قلبًا مظلمًا بعتمة المعصية، بل كلما استنار القلب بنور الطاعات كلما وجد السعادة في الدنيا.

قد يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم بيَّن أنَّ السعادة تكون في أمور مادية، كما في حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم: (مِن سعادةِ ابنِ آدمَ ثلاثة، ومن شِقوةِ ابنِ آدم ثلاثة، من سعادة ابن آدم: المرأةُ الصالحة، والمسكنُ الصالح، والمركب الصالح، ومن شِقوة ابن آدم: المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء)[2]؟

فيقال: إن هذه فروع، والأصل هو التقوى، فإن وجدت مع الأصل طابت به وطابت بها الحياة وكانت نورًا على نور، وإن عُدم الأصل فلا ينفع الفرع، بل ربما ينقلب عكس مقصوده.

ر- الولاية: قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

يلجأ الطفل لوالده، والمظلوم للحاكم، فيشعرون بالأمان؛ لأنَّهم يرون فيمن ولي أمرهم العلم والحكمة والقدرة والقوة والإعانة والتعليم، فكيف لو كان وليُّك هو الله تعالى؟

الولاية المعنية هنا، كالمعية التي سبق الحديث عنها؛ ليست ولاية ومعية العلم والتدبير فحسب، وهما اللتان يشترك فيهما الخلق جميعًا، بل ولاية ومعية النصرة والرعاية والتأييد، وهاتان لا تكونان إلا للمتقين.

ز- العاقبة الحسنة: قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

في صراع الحق والباطل، قد يكون للباطل جولات وصولات، وقد يكون للحق آلام وآهات ونكبات، وذلك لحكم جليلة يريدها الله تعالى، لكن نهاية المطاف لا بد أن ينتصر الحق ويزهق الباطل، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

ولهذا أنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم قصص من قبله من الرسل ليثبِّت فؤاده مما لاقاه من أذى الكفار، وختم إحدى القصص بالآية التي سبقت: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

## وأما ثمرات التقوى الأخروية:

أ- الحشر وفدًا: قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦].

لا يكن المتقون في مأمن من أهوال القيامة فحسب، بل يأتون إلى الله تعالى في المحشر وفدًا،

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٤٤٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٢٧٢): «رواه أحمد، والبزار، والطبراني في الكبير، والأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح».

أي مكرمين راكبين على نجائب مخصصة، وقيل مراكب من نور، فلنتأمل الفرق بين الحشر في غاية التكريم، وبين سوق المجرمين في غاية الذل: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾.

ب- النجاة من أهوال القيامة: قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦٠، ٦١].

فأهوال يوم القيامة يراها صاحب التقوى لكن لا تمسه، قال تعالى: ﴿لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون﴾، وهي كقوله في غيرها عن المؤمنين: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

ت- اجتياز الصراط: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

حين يضرب الصراط جسرًا على نار جهنم، ويأمر الله العباد بالمرور فوقه، فهناك يجد صاحب التقوى آثار صبره على الطاعات وعن المعاصي؛ إذ تنير أعماله الصالحة الطريق أمامه فيبصر الصراط، ويعبر فوقه إلى الجنة، ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢]، ولا يجد أهل النفاق نورًا يبصرون به الطريق، فيطلبون النور من المؤمنين، ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، ولكن هيهات! فهذا النور حملوه معهم من الدنيا بالمحافظة على الطاعات وترك المنكرات، ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]، وهنا يكون القرار والحكم الفصل والعدل من الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

ث- شفاعة الإخوان: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

من صاحب المتقين نال من خيرهم وسعادتهم، فهم القوم لا يشقى جليسهم، كما قال بعض السلف: «استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعة»[1].

ج- مقعد صدق: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

آخر ما يستقر بالمؤمنين المقام في الجنة، في جوار المليك العلام، ولنتأمل (عند) لنرى حسن المقام وطيب الختام.

لعل في هذه الجولة السريعة والمختصرة، وضعنا بين يدي القارئ الكريم بيان الثمرات التقوى في الدنيا والآخرة لتكون محفزًا له على سلوك سبيل التقوى، والفوز بها، ليكون ممن قال تعالى فيهم: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦].




(١) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة ص (٩٩)، وقد ورد مرفوعًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، ذكره السيوطي في الجامع الصغير وعزاه لابن النجار عن أنس ورمز لضعفه، ينظر: الجامع الصغير المطبوع مع فيض القدير، للمناوي (١/ ٥٠٠).

# منهجية التفكير التصميمي ..
# تجارب رائدة في خطبة الجمعة

د. ياسر العيتي[1]



لكي ننجح في بيع مُنتَجٍ ما، بدلاً من تصميمه بناء على افتراضاتنا حول ما يريده مستخدمو هذا المنتج، نقوم باستطلاع آراء المستخدِمين والخبراء لفهم حاجات المستخدمين» هذه هي الفكرة الأساسية لمنهجية التفكير التصميمي، التي انتقلت من مجال الصناعة إلى مجال تطوير المؤسسات وحل المشكلات الإدارية التي تواجهها ثم انتقلت إلى المجال الاجتماعي لتصميم حلول للمشكلات الاجتماعية

بدأ استخدام منهجية التفكير التصميمي في عالم الصناعة في ثمانينيات القرن الماضي، وهي ترتكز على فكرة: «لكي ننجح في بيع منتجٍ ما، فبدلاً عن أن نصممه بناءً على افتراضاتنا حول ما يريده المستخدمون، نقوم ببحثٍ نستطلع فيه آراء المستخدِمين والخبراء بالمنتج ، فنفهمُ بالضبط حاجاتِ المستخدِمين، وما هي أفضل طريقةٍ لتلبيتها، وبناءً على هذا الفهم نصمِّم المنتَج الذي يلبِّي حاجاتهم، وبذلك تكون فرصتُنا في تسويق المنتج أفضلَ بكثير؛ لأنَّ التصميم سيكون مبنيًا على الواقع الحقيقي وليس على افتراضاتنا المسبقة عن هذا الواقع، والتي قد تكون صحيحة وقد تكون خاطئة».

مثلًا، إذا أردنا أن نُصمِّم أفضل كأسٍ للشُرب، نتوجَّه بالسؤال للمستخدمين: ما الذي يريدونه في الكأس؟ ما تفضيلاتهم لحجمِه وشكلِه ولونِه والمادةِ التي يُصنع منها؟ ونسأل الخبراء في صناعة الكؤوس عن خبرتهم في هذه الصناعة: ما نوعية الكؤوس التي نالت إقبال الناس ولماذا؟ وما نوعية الكؤوس التي

(١) طبيب وكاتب سوري

لم تنل إقبال الناس ولماذا؟ وبناء على مجموع الإجابات يصبح لدينا فهمٌ أفضل لما يريده الناس في كؤوس الشرب، وبناء على هذا الفهم نصمم الكأس المناسب.

> **من خلال من منهجية التفكير التصميمي تكون فرصتُنا في تسويق المنتج أفضل بكثير، لأنَّ التصميم سيكون مبنيًا على الو اقع وليس على افتراضاتنا المسبقة عن هذا الو اقع، والتي قد تكون صحيحة وقد تكون خاطئة**

## تتكون منهجية التفكير التصميمي من خمسة مراحل:

١. مرحلة الاكتشاف: وتبدأ بسؤال التحدي: كيف يمكننا أن نلبي حاجة معينة؟ مع تحديد أصحاب العلاقة والخبراء والأسئلة التي ستوجه إليهم، ثم تُجرى المقابلات معهم وتطرح عليهم الأسئلة.

٢. مرحلة التفسير: وتعني تحليل الإجابات لمعرفة حاجات أصحاب العلاقة.

٣. مرحلة التصور: وتشمل تصميم المنتج الذي يلبي حاجات أصحاب العلاقة.

٤. مرحلة التجريب: وفيها يُجرَّب المنتج على مجموعة صغيرة منتقاة من أصحاب العلاقة لمعرفة آرائهم والاستفادة من هذه الآراء في تحسين المنتج قبل طرحه بكميات كبيرة.

٥. مرحلة التطوير: تطوير المنتج باستمرار من خلال معرفة آراء أصحاب العلاقة بعد طرحه في السوق على نطاق واسع.

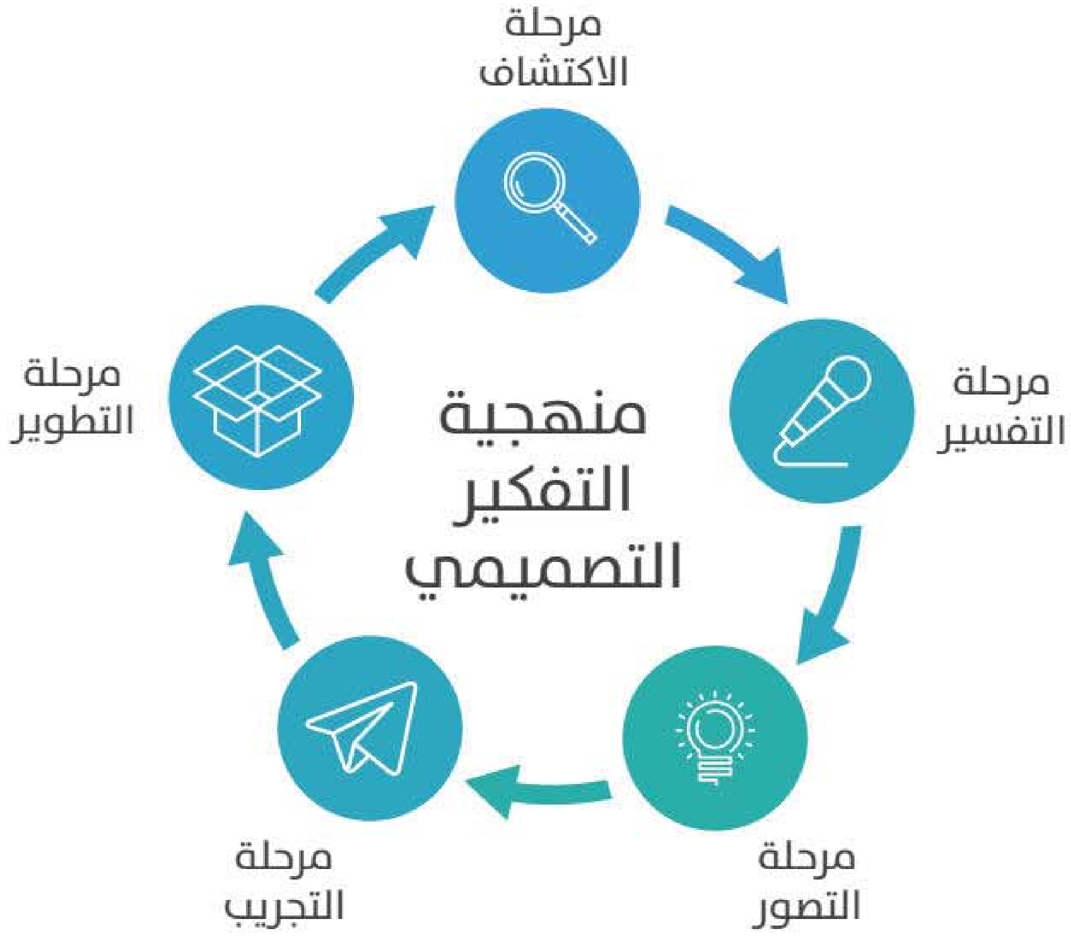
## منهجية التفكير التصميمي في خطبة الجمعة:

انتقلت منهجية التفكير التصميمي من مجال الصناعة إلى مجال تطوير المؤسسات وحل المشكلات الإدارية التي تواجهها، ثم انتقلت إلى المجال الاجتماعي لتصميم حلولٍ للمشكلات الاجتماعية كالبطالة والجهل والعنف؛ وفي خطوةٍ طموحةٍ .. قُمنا بنقل هذه المنهجيّة إلى مجال تحضير خطبة الجمعة، فبدلًا من أن يُعِدُّ الخطيبُ الخطبة من بطون الكتب ، ومما يتوقع حاجة المجتمع إليه، يُشكِّل فريقًا ويُجري بحثًا في المجتمع حول الموضوع الذي يُريد أن يخطب فيه، فمثلًا إذا أراد أن يخطب عن ظاهرة الغلوّ، فيتوجه إلى أصحاب العلاقة: (شاب تأثر بالغلاة وانضم إليهم، عائلة هذا الشاب، أحد أصدقاءه، شاب تائب من جماعات الغلو، ...)، ويتوجه إلى الخبراء: (عالم أو مفكر مطَّلع على أفكار الغلاة، مختصّ اجتماعي، مختصّ نفسي...)، ويطرح على كل واحدٍ من هؤلاء بضعة أسئلة تزيده فهمًا لهذه الظاهرة، وتُزوِّده ببعض الحلول لها. وبعد الحصول على الإجابات يقوم فريق إعداد الخطبة بتحليلها واستنباط أسباب ظاهرة الغلو منها، ووضع بعض الحلول التي تعالج هذه الظاهرة أو تقي من الوقوع فيها. ثم يستفيد منها الخطيب في إعداد خطبته .

## تجارب متعددة:

جُرِّبت هذه المنهجية على موضوعات عدَّة في خطبة الجمعة، كالاحتكار، والغلو، والتآلفِ وجمع الكلمة، ولمسَ الخطباء من ذلك أثرًا كبيرًا في تطوُّر قدراتهم على فهم المجتمع، والقدرةِ على تشخيص المشاكل وطرح الحلول بناءً على فهم عميق لواقع المسألة المطروحة، وكذلك جعلهم أكثر قربًا من المستهدفين بخطبة الجمعة، سواء كانوا جزءًا من الحلِّ أو المشكلة.

إحدى التجارب العملية التي أجراها بعض الخطباء كانت على موضوع (التآلف وجمع الكلمة)، حيث أعدَّ خطبة عن الموضوع بالطريقة المعتادة، ثمَّ أعدَّها مرةً أخرى بطريقةِ منهجية التفكير التصميمي، فشكَّل فريقًا، وحدَّد الشرائح التي سيستهدفُها في الميدان، وكانت فئة الخبراء تتألف من: (متخصص في علم الاجتماع، ومتخصص في الشريعة، ومتخصص في علم النفس)، ثم حدَّد فئةً ممّن كانت لهم تجارب في ذلك، ناجحة كانت أو مخفقة، وحدد بعدها فئةً من المستهدَفين المباشرين بمثل هذا الطرح، ثمَّ صمم مع فريقه الأسئلة المناسبة لطرحها على




هؤلاء جميعًا، بحيث تُساعد على تشخيص أصل المشكلة ، وتُعين على اقتراح الحلول، ثم حلَّل مع فريقه الإجابات، فخرجوا من ذلك بنتيجةٍ اتضح من خلالها كم كانوا بعيدين عن المجتمع لو طرحوا الموضوع من زاوية نظرهم الخاصّة، أو اعتمدوا على فهمهم لواقع الناس، وانعكس ذلك على مضمون الخطبة؛ حيث تغيّر تشخيص المشكلة وكذلك الحلول، وبدت الخطبة عميقة بفهم أطراف العلاقة جميعًا.

> **إن تحضير الخطبة وفق منهجية التفكير التصميمي تجعلها أكثر التصاقًا بالواقع وملامسة لحاجات الناس و أفكارهم ومشاعرهم، وبالتالي أكثر قدرة على التأثير فيهم.**

وكانت إحدى التجارب كذلك في خطبة حول موضوع الاحتكار، سار فيها الخطيب على مراحل منهجية التفكير التصميمي، فجاءت النتيجة مُذهلة لمّا توجه الخطيب بكلامه للمحتكِرين أنفسِهم، وتوجَّه كذلك للمسؤولين وأصحاب النفوذ، وهكذا حتى أحاط بالمشكلة من جميع أطرافها.

إن تحضير الخطبة وفق منهجية التفكير التصميمي تجعلها أكثر التصاقًا بالواقع وملامسة لحاجات الناس وأفكارهم ومشاعرهم، وبالتالي أكثر قدرة على التأثير فيهم. كما أنَّها تعطي الخطيب دورًا اجتماعيًا وقياديًا يتجاوز مجرد إلقاء الخطبة من على المنبر، وبما أنَّها عملٌ جماعيٌّ يحتاج إلى

فريق سواءً في مرحلة الاكتشاف أو التفسير والتصور فإنَّها تُدرب الخطيب والفريق الذي يعمل معه على العمل الجماعي، كما أنها تعطي الخطيب نظرةً شاملةً للموضوع الذي يتحدَّث عنه.

هكذا يكون التغيير والتأثير في المجتمع بفهمه والاحتكاك به ومعايشة مشاكله، ولو تأمَّلنا في هدي المصطفى صلى الله عليه وسلم لوجدنا كيف كان يُخالط المجتمع بجميع فئاته فيسمع من هذا ومن هذا، أو يرسل أصحابَه ليأتوا له بخبر ما يغيب عنه؛ وهكذا كان الخطباء المؤثرون على مدى التاريخ فإن من أهم أسرار تأثيرهم يتجاوز مجرد مسألة التمكُّن من الإلقاء والفصاحة إلى قُدرتهم على فهم واقعهم ومحيطهم.

وفي سبيل تحويل هذه المنهجية إلى واقع عملي ملموس أجرى، فريقٌ مختصٌ العديد من ورش التدريب لعدد من الخطباء لاقت إقبالاً واستحسانًا منهم، وأظهر تتبُّع أثر هذه الخطب تغيرًا ملموسًا في أداء العديد منهم، وآثاراً إيجابية في تلقي عموم الناس لهذه الخطب[1].

> **لو أجرينا دراسةً للخطباء المؤثرين على مدى التاريخ لوجدنا أنَّ سرّ تأثيرهم يتجاوز مسألة التمكُّن من الإلقاء والفصاحة إلى قُدرتهم على فهم واقعهم ومحيطهم**

## تطبيق المنهجية في مجالات أخرى:

طُبِّقَت عدة مبادرات في المجتمع السوري في المناطق المحررة ضمن هذه المنهجية في مجال التعليم في مراحل دراسية مختلفة، والمأمول تعميم التجربة بهذه المنهجية في مجال التعليم ومجالات الدعوة وسياقات العمل المجتمعي، من أجل إحداث تغيير عميق في المجتمع.

وإننا إذ نذكر بكل فخرٍ واعتزازٍ قيام العديد من مؤسسات المجتمع السوري – في ظل هذه المرحلة الضاغطة والأزمة الخانقة – بمثل هذه التجارب الرائدة، واستثمارها أحدث المنهجيات العالمية في التغيير، ما يؤكد على أنَّ شعوبنا قادرة على تقديم الكثير من الإبداع والإنجاز والتميز، وأنها مجال استثمار ضخم لكل من أراد إفادتها ومساعدتها على تخطي الأزمات والتقدم في مختلف المجالات.



(١) أجرت رابطة خطباء الشام تدريبًا على منهجية التفكير التصميمي للعديد من الخطباء في عدة مناطق من الشمال السوري المحرر، وتقوم الرابطة بمتابعة الخطباء بعد هذه الورش، وتشجيعهم على تطبيق ما تدربوا عليه.




أ. مضر محب الدين

تعاظمت الأمانة والعطاءُ ... وزادُ الصبر يسبقه البلاءُ

وجاءت نهضة من بعد كَبوٍ ... ليُرفع للمجيبين اللواءُ

تفرقت الصفوف فكان فرضًا ... بأن يُحيا بأمتنا الإخاءُ

نُجدِّد رسمَ هذا الدين حتى ... يلامِسَ واقعًا، يُجلى الشقاء

ننمي بذرة العلماء سقيًا ... ونحرسُها لتحضنها السماء

نربي الجيل بالأخلاق حتى ... نُحصّنهم وننصحُ إن أساؤوا

على رأس الحضارات ارتقينا ... وبالإيمان يرتفع البناء

سنبعث في ظلام الليل نورًا ... جديدًا، كي يُشعَّ به الفضاء

ونسقي غرسة عطشت طويلًا ... فتقوى لا يمزقها الشتاء

ونحيي أمةً ما زال فيها ... عروق نابضات وانتماء

لقد شنُّوا على الإسلام حربًا ... وليس يفيد في الحرب انزواء

أندفن رأسنا في الرمل جبنًا؟ ... وفي جنباتنا العلم الدواء

بغير العلم ليس لنا نجاةٌ ... ولن يجدي التسخُّط والبكاء

فقوموا وارفعوا معنا صروحًا ... يُعزُّ بها الكرام الأتقياء

بأقلام الدعاة نشق بحرًا ... من الظلمات، يمحوها النقاء

نكافح في ربوع العمر كي لا ... يُعاجلَنا وقد قرُب الفناء

ونسكب في قلوب الجيل طهراً ... وعند الله في ذاك الجزاء

إذا عطش الفؤاد ورام ريًا ... فنحن لكل ظمآنٍ .. رواء

هذه المساحة مخصصة لمشاركات القراء التي تصلنا على بريد المجلة
Rawaa@islamicsham.org
ونستقبل فيها خواطركم وإبداعاتم الفكرية والأدبية، بحيث لا تزيد عن ١٧٠ كلمة

# تـأمـرنـي؟

## د. خير الله طالب

مشهدٌ مفعم بالعاطفة يحكيه ابن عباس في قصة مُغيث مع زوجته بَريرة رضي الله عنهم أجمعين، في الحادثة المعروفة عند طلبها الانفصالَ عنه، يقول: كأني أنظرُ إليه يطوف خلفها يبكي، ودموعه تسيل على لحيته! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا عباس، ألا تَعجبُ من شِدة حُب مُغيثٍ بَريرة، ومن شِدة بُغض بَريرةَ مُغيثًا؟)! ثم شفع النبيُ الشفوق صلى الله عليه وسلم قائلاً لبريرة: (لو راجعتِه)، قالت: يا رسولَ الله، تأمرني؟ قال: (إنما أنا أشفع)، قالت: لا حاجةَ لي فيه![1].

كلُ الحبّ لدى مغيث، وكلُ الشفقة لدى نبيّ الرحمة، لم تحمل النبي صلى الله عليه وسلم على أمر بريرةَ بالعودة إلى زوجها، رغم استعدادها للطاعة، كما يدل سؤالها (تأمرني؟).

تُرى ما الذي غَلَب كل ذلك، حتى أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وجَّهها ولم يأمرها؟ إنَّه حاجتُها ومصلحتُها التي عبَّرت عنها دون خجل: «لا حاجة لي فيه». وإذا لم يكن الشافع والناصح مراعيًا لحاجة المنصوح، فما حاجة المنصوح في طاعته؟

إنَّها منهجيةٌ نبويةٌ للمربين والمعلمين والخطباء والدعاة والساعين بإصلاح ذات البين، بيّنة غاية البيان بأنكم أيها الناس (أعلمُ بأمور دنياكم)، و (إنما أنا أشفع)، وشفاعتي لا تعني أني أعرَفُ بحالكم وحاجاتكم، فأنتم أعلم بما يصلُحُ لكم في نهاية المطاف. إنها الحكمة وفهم أحوال الناس ومعرفة ما يصلح لهم.

هذه المنهجية تختلف عن طريقة النصح التي يتبعها بعض من له الولاية على المنصوحين، الذين يُلزمون منصوحيهم باتباع إرشاداتهم، أو يُحاولون فرضها عليهم، وقد يكونون صادقين في تحقيق مصلحة المنصوح، لكن طريقتهم ليست على المنهج النبوي الذي يحترم كيان الإنسان، ويمنحُهُ الأمان من الاستبداد به، فيبني شخصيته القوية المهيَّأة لتحمُل أمانة التكليف الشرعي ومسؤوليات الحياة (لا تُنكَحُ الأيِّمُ حتى تُستأمَر، ولا تُنكَحُ البِكرُ حتى تُستَأذَن)[2].

الاستعدادُ النفسي للداعية ألّا يُلزم الناسَ باستشارته أو نصيحته، وألّا ينزعج من رفضهم: دليلُ حكمته وعقله، وبرهان معرفتِهِ بالمنهج النبوي الكريم، وسيجعله أقدَرَ على بذل النصيحة بأريحية، يُلقي كلمته عند من يطلبُها أو في الموقف الذي يتطلَّبها، مجتنِبًا إيجاب ما لم يوجبه الله، حذِرًا من التعامل باندفاع ينسف نفسية المتلقي، متباعدًا عن الأهواء الشخصية التي قد تنشأ له في علاقاته مع الناس، يقظًا من حيل الوصاية والاستبداد الناعم الذي قد يفطن له المنصوح بعد حين، فينقلب على من فرض عليه الرأي، ولو كان أحبَّ الناسِ إليه.

تزداد الحاجة إلى أسلوب (عرض النصيحة واجتناب فرضها) في زمنٍ تطلَّع الناسُ فيه إلى الحرية وتسلّم زمام المسؤولية، بعد أن رفضوا الأوامر من أعلى هرم السلطة البشرية، وشعروا بضعف دور المرجعيات الشرعية والمجتمعية، فزادت حساسيتهم من النصيحة، وسعوا إلى تقرير كل ما يخصُّهم بأنفسهم بعيدًا عن أي توجيه .. الأمر الذي يستدعي من حَملة العلم والفكر ومسؤولي الدعوة والتربية أن يكونوا أكثر انتباهًا لأسلوب نصيحتهم، ولعلَّهم لن يجدوا طريقًا لقبولها أسرع من تحسين طريقة عرضها على النهج النبوي الذي لا يلزمها قبول الشفاعة حتى وإن كان الشفيع نبيًا، أو سلطانًا أو عالمًا أو شريفًا.

ومن النصائح المهمة هنا عدم تقديم المقترحات لصاحب المشكلة، وإنما الاكتفاء بأسئلة ممنهجة تساعده على استخراج الحلول العميقة في نفسه[3].

نحتاج إلى توعية من نُحب، والرقي بهم ليكونوا أهلاً لاختيار ما يصلح لهم، وإن اختاروا ما ليس في صالحهم بادي الأمر، وتحمُّل تبعات تلك الاختيارات والقرارات، وذلك خيرٌ من الوصاية عليهم والاختيار نيابةً عنهم؛ لأنَّ ذلك قد يُثمر نفورهم عمَّا يصلح لهم، وإن فعلوه.

وإذا ظننَّا أنَّ المتربي لا يعرف مصلحةَ نفسه، فعلينا تنميةُ عقله، وتزويده بالأدوات اللازمة لذلك. وإذا خشينا تفلُّته من الأوامر الشرعية بحجَّة الحرية، فعلينا تربيته على تعظيمِ الله عز وجل ومراقبتِهِ ومحاسبةِ نفسه.

فالإنسانُ أكثر قابليةً للنصيحة عندما تُعرض ولا تُفرض. والأقدر على تحمل المسؤولية هو من يتخذ القرار، فلا تتخذ قرارًا عن غيرك، بل ساعده على رؤية الخيارات وعواقبها.

(١) أخرجه البخاري (٥٢٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٣٦)، ومسلم (١٤١٩).

(٣) ضمن ما يصطلح عليه في مهارات التمكين الذاتي بـ الكوتشينج coaching.




# من إصداراتنا

فقه الائتلاف وأصول الاختلاف

إعداد الشيخ
محمد أمجد بيات

كي لا يكون الخلاف معولاً للهدم

د. معن عبد القادر كوسا

معالم منهجية في الخلاف

إعداد الشيخ
عاصم الحايك